الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة والأدب العربي

تخصص: حضارة عربية إسلامية

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر

الموسومة بـ:

2013
Fac 17 2014

وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي في القرن الرابع الهجري

شعر ابن خفاجة أنموذجا

إعداد الطالبة:

❖ لطيفة العياطي

تحت إشراف الأستاذة:

د.خناثة بن هاشم.

السنة الجامعية 2011•2012

THS_811-12/01

إهداء

تحية إكبار وإجلال معطرة بأريج الحب والجمال

لذوي الفضل بعد رب العزة والجلال في إنجاز هذا العمل

قلب برحمته رعاني، ووجه تبسم إذا رآني، وعين بكت إن ألم اعتراني وحضن إذا [illegible] بالبرد فبدفئه غطاني، أمي نور عياني، عذرا على التقصير فحبك كل المعاني

إلى العظيم الذي يجعل تعبه سفينة تسير بي إلى الأمام، وحبه نبراسا يضيء عتمة الظلام، وإذا ما رأيته انجلت مني كل الآلام، لك أبي الغالي خالص الحب والاحترام

لكنّ أيتها الرائعات اللواتي آنستن وحشتي، وكن سلوتي في البيت والحياة، أخواتي: بديعة وزوجها الكريم محمد، نظيفة وزوجها الكريم يوسف، نسيمة وزوجها الكريم عمر، إلى المتألقة عمارية، والمحبوبة عفاف.

إلى سندي في الحياة، أخي الوحيد ضياء البيت "محمد".

إلى الرياحين التي زينت بستان البيت، الكتاكيت: عبد الرزاق، يسرى ،فاطمة الزهراء.

إلى اللواتي علمنني معنى الأخوة: رفيقات الدرب في الدراسة والإقامة الجامعية: سلاف، سمية، بهيجة،حورية، سعاد، خيرة، فاطمة،خديجة، وهيبة، وإلى كل زميلات الدراسة.

إلى من صنعت كتلة الجبال في جامعة تلمسان ببارق الحب والحنان، "جمعية جهينة الثقافية"

إلى كل من نساهم قلمي، ولم ينساهم قلبي، أهدي ثمرة جهدي

أمة الله: لطيفة العياطي

كلمة شكر

عرفانا بالجميل...

وبخالص مشاعر التقدير والاحترام...

نتقدم بالشكر الجزيل...

إلى مثالنا الأول في الخلق والعلم...

من يحرص على منح الطالب حقه....

من لمسنا لديها كل التشجيع والدعم

في إنجاز هذا العمل المتواضع

إلى الأستاذة المشرفة الدكتورة "خناثة بن هاشم"

التي أكرمتنا بإشرافها على هذا البحث

وإلى الأستاذة المناقشة التي شرفتنا بمناقشة هذه المذكرة

فحرصت على إظهار محاسنها ومساوئها

كما نتقدم بالشكر أيضا إلى كل من ساعدنا من قريب أو من بعيد ولو بكلمة طيبة

ولله الحمد والشكر أولا وأخيرا

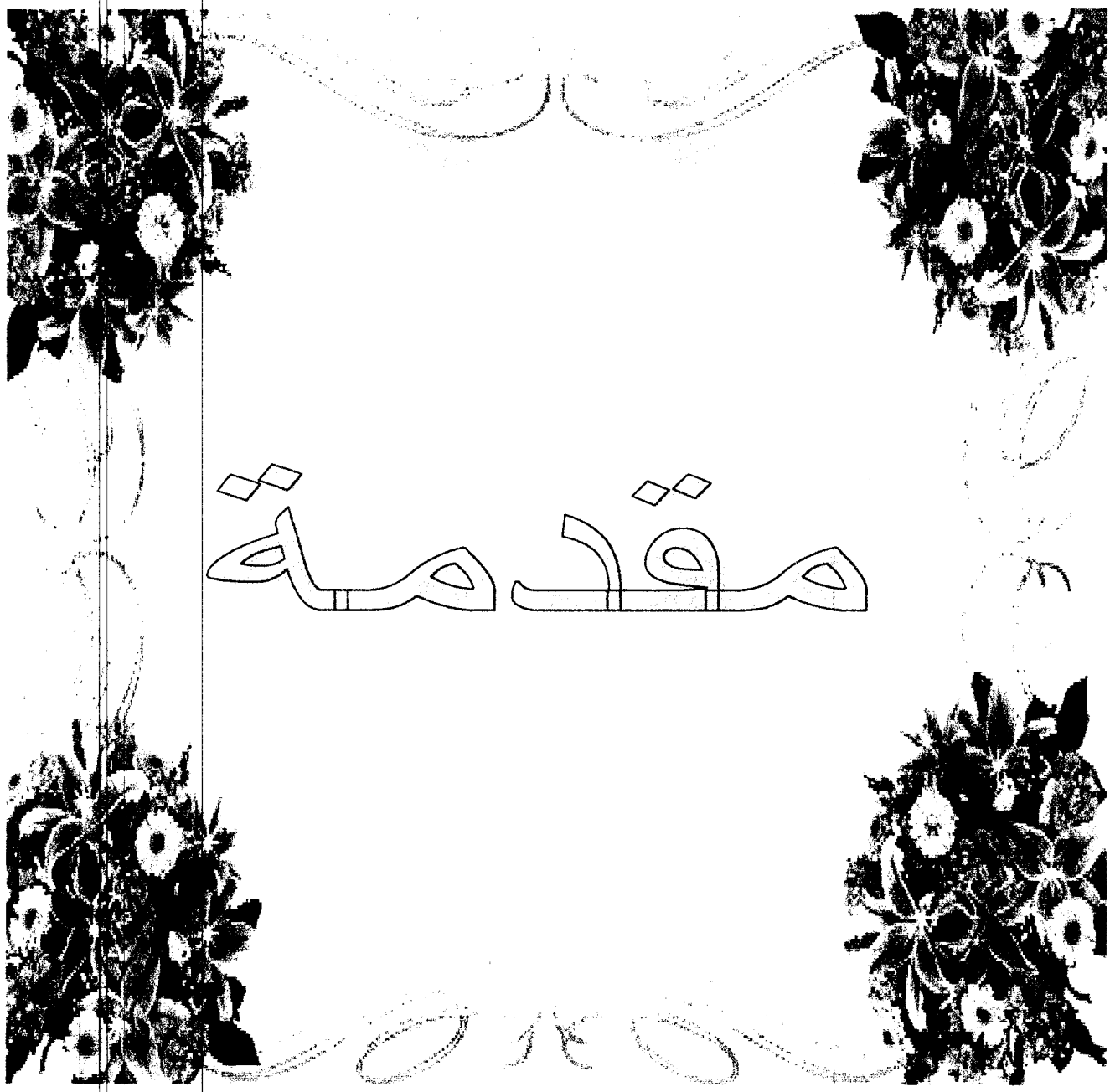

مقدمة

مقدمة:

لقد ظل الشعر الأندلسي في مجموعه بخلاف الشعر المشرقي، يفتقر إلى دراسات أكاديمية عميقة ومتنوعة، وإلى دارسين يتوفرون على قدر كبير من الصبر والأناة، لجلاء كنوزه، ونفض غبار السنين عنه، وإخراجه إلى الناس في صورة حسنة محبة.

وقد يرجع الفضل فيما ظهر من دراسات وأبحاث أولية حول الأدب الأندلسي شعره ونثره إلى نخبة من علماء الاستشراق الذين وقفوا حياتهم على دراسة التراث العربي في الأندلس بمختلف جوانبه الأدبية والتاريخية والحضارية فأظهروا مخطوطات كانت ضائعة، ونشروا كتبا ودواوين ظلت مجهولة، وحققوها بمنهج علمي سليم، أمثال المستشرق الإسباني الأستاذ إميليو غرسيّة غومس ،وهنري بيرس، وليفيء بروفنسال، لويس نيكل، وبيير كروسيا، وآدم ميز وغيرهم.

وبفضل هذه الجهود الخيرة أصبح بأيدي الدارسين العرب وغيرهم، نفائس ثمينة مما أبدعته قرائح الأجداد في بلاد الأندلس، فكان ذلك باعثا قويا على وجود حركة أدبية نشطة هدفها تقييم وتحليل ونقد ما بهذا التراث الأدبي الزاخر من قيم أصيلة، ومعان سامية، وأساليب محكمة وصور بديعية، غير أن الدراسات التي قامت حول الشعر الأندلسي على قلتها، بقيت في أغلبها تتصف بطالع التأريخ الشعري- إذ صح هذا التعبير- وتتسم بالتعميم في التناول وعدم الدقة في إصدار الأحكام، فبقي الشعر الأندلسي في نظر هؤلاء الدارسين المحدثين نسخة من الشعر العربي في المشرق، وصور له، في الخصائص والمميزات - مقلدا له في المنهج والأسلوب، وتنعدم فيه ملامح البيئة الأندلسية بكل مكوناتها وخصائصها، وتغيب فيه شخصية الشاعر الأندلسي رغم وضوحها وفاعليتها، ولكن هذا لا يقلل بأي حال من الأحوال- من تلك الجهود المبذولة، فالحق أن هناك باحثين أكفاء في عالمنا العربي تخصصوا في الأدب الأندلسي، وخاضوا غماره بجرأة وحماس، ووقفوا أنفسهم وأقلامهم لدراسته وإخراجه إلى القارئ، إلا أن هذا الأدب، والشعر منه على وجه التحديد، مازال بحاجة إلى مزيد من البحث والدرس والاكتشاف لإجلاء حقائقه ورصد ظواهره.

وإذا كانت هذه هي حال الشعر الأندلسي في شموليته وتعدد أغراضه، فما عسى أن تكون حال شعر الطبيعة، وهو غرض من أهم أغراضه، وظاهرة قوية منن الظواهر التي تميز بها شعراء الأندلس عن سواهم فألبسوه ثوبا مميزا من واقعهم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ولونوه بألوان طبيعتهم الساحرة فحازوا به قصب السبق دون سائر شعراء المشرق.

ولا نجانب الواقع إذا قلنا إن شعر الطبيعة، وهو الغرض البارز في أغراض الشعر الأندلسي - كما أشرنا- لم يلق من الدارسين عناية، ومن المتخصصين اهتماما، اللهم التفاتات عابرة في إطار الدراسات العامة للشعر الأندلسي، وحق هذا الجانب أن تفرد له دراسات، وتخص له كتب وأبحاث لما

فيه من عناصر الجدة والطرافة والجمال التي تسترعي اهتمام الدارس والقارئ على السواء، وكان هذا بحد ذاته دافعا من جملة الدوافع التي جعلتني أفكر في اختيار موضوع وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي في القرن الرابع الهجري – عنوانا لبحثي المتواضع هذا.

والحق أنني مدينة في إلتفاتي إلى موضوع الطبيعة في الشعر الأندلسي، وما استقر عليه عزمي من بحثه ودراسته، إلى ما قرأته لبعض شعراء الأندلس في هذا العصر أثناء دراستي الأولى، وإعجابي بجمال أسلوب الأندلسيين ورقة طبعهم وسهولة عبارتهم، فزاد في قناعتي وتمسكي به، يضاف إلى ذلك حب متأصل في نفسي للطبيعة، منشؤه إعجابي الشديد بما من الله به على بلدي من جمال في الطبيعة بشتى مظاهرها.

ولا أدعي أن الطريق نحو هذا الهدف كان معبدا ودون أي عقاب. بحيث، لم يكن في متناول يدي في هذا الموضوع دراسات كافية أستنير بها، ثم أنني صادفت من الصعاب الشيء الكثير، وكان أولها يتصل بمادة البحث، فعلى الرغم من غنى الشعر الأندلسي بأوصاف الطبيعة، فإنه لم يكن من السهل أبدا الوصول إليهما بسبب تناثر هذه الأشعار في بطون المصادر المختلفة التي لم يكن كثير منها في متناول اليد، الأمر الذي زاد من صعوبة جمعها واستخراجها.

وثاني هذه المصاعب يرجع إلى أن شعرالطبيعة ذاته لم يكن موضوعا قائما بذاته، بل كانت هذه الأوصاف الطبيعية في غالبها تأتي في سياق أغراض أخرى كالمدح والغزل ووصف الخمر وغيرها، وفي هذا مشقة كبيرة على الباحث، إذ عليه أن يقرأ النصوص، وفي هذا مشقة وعناء بالإضافة إلى بعض الصعوبات الأخرى. والمقام لا يسمح بذكرها كلها.

وطبيعي أن يستند أي بحث إلى مصادر ومراجع تغذيه وتزوده عند الحاجة لذا فإن صفحات هذا البحث ما كانت لتصل إلى ما عليه الآن، لولا المصادر والمراجع التي عدت إليها مرات، وأخص منها بالذكر كتاب "تاريخ الأدب الأندلسي –عصر سيادة قرطبة– للدكتور إحسان عباس"، كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيقه الدكتور إحسان عباس، كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" للشيخ المقري التلمساني بالإضافة إلى كتاب "ديوان ابن خفاجة" الذي استفدت منه كثيرا في نقل شعر ابن خفاجة في وصف الطبيعة، وغير ذلك كثير، وقد رصدنا – المصادر والمراجع– بالتفصيل في آخر هذه الدراسة.

ويطيب لنا أن نلم بمادة هذا البحث ونتائجه إلمامة سريعة ، دقيقة، متوخين من ورائها تقديم صورة واضحة ومركزة عن محتوى هذه الدراسة التي تدور في فصلين أساسيين: أما الفصل الأول، فقد تحدثت فيه عن وصف الطبيعة – بصورة عامة–، أما المبحث الأول فقد درست فيه البعد التاريخي

للقرن الرابع الهجري في الأندلس، سياسيا واقتصاديا، اجتماعيا وفكريا. واختص المبحث الثاني بدراسة الطبيعة في الشعر الأندلسي باختلاف أنواعها، ومنها الطبيعة الحية والخضراء، والطبيعة المصنوعة.

أما الفصل الثاني: فتطرقت فيه لشعر ابن خفاجة في وصف الطبيعة كأنموذج لشعر الطبيعة في الأندلس، وصدّرته بتمهيد، تحدثت فيه عن نشأة ابن خفاجة وتكوينه، وقسمت هذا الفصل بدوره إلى مبحثين:

تناولت في المبحث الأول الحديث عن مظاهر الطبيعة في شعر ابن خفاجة، وقد اشتمل على أوصاف للطبيعة الميّتة من أشجار وحدائق وأنهار وغيرها، والطبيعة الحية من وصف للمرأة والحيوان وغير ذلك. أما المبحث الثاني فقد استعرضت فيه عدة شاعرنا ابن خفاجة في محاور الطبيعة من صور بيانية ومحسنات بديعية وختمته بذكر خصائص شعر الطبيعة عند ابن خفاجة.

وقبل هذا صدّرنا بحثنا بمقدمة، وبعدها مدخل حاولنا فيه إعطاء لمحة موجزة عن شعر الطبيعة في حياة الشاعر العربي المشرقي والأندلسي بصفة عامة.

وتوصلنا في النهاية إلى خاتمة كانت بمثابة زبدة وحوصلة وإلمام ببعض النتائج التي توصلت إليها.

واعتمدنا في كل هذا على المنهج التاريخي الوصفي، فالمنهج التاريخي اعتمدنا عليه كثيرا في المبحث الأول من الفصل الأول، أما المنهج الوصفي فقد رافقنا في بقية المباحث الأخرى، وذلك في حديثنا عن وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي بصورة عامة وعند ابن خفاجة بصورة خاصة.

ولسنا نزعم – أبدا– أن هذا البحث يحمل الصورة الكاملة لشعر الطبيعة في الأندلس، لكن أفضل البداية هي أن نبدأ، ومن هنا فهذا البحث لم يقل الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع الشاسع الذي لا يزال يفتقر إلى الدراسات الجدية، والأبحاث الدقيقة والعميقة التي تخرجه إلى نور الوجود.

وأملنا أن نكون موفقين في بحثنا المتواضع هذا، وأن يكون لبنة صغيرة من أجل توضيح ورسم بعض الملامح لصورة شعر الطبيعة في الأندلس. ونتمنى أن تكون حسناتنا أعظم من هفواتنا، وتوفيقنا أكبر من قصورنا.

فإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الهوى والشيطان، وإن أصبنا فمن الله وحده عز وجل وحده لا شريك له، وله الفضل على ما وهب وأعان وإياه نسأل التوفيق والسداد.

مدخل

للطبيعة صدى واسعا في حياة الإنسان العربي من مشرقه ومغربه، وتأثيرا بليغا في ثقافته وفكره، فقد ظهر وصف الطبيعة والتغني بها في شعر العربي ونثره، فنجد مؤلفات نثرية كثيرة، برع فيها الكتاب العرب وخاضوا من خلالها في كل جانب من جوانب الطبيعة الحية أو المصنوعة، والتي كان على رأسها كتاب الحدائق، وكتاب نفح الطيب وغصن الأندلس الرطيب، وغيرها بالإضافة إلى رسائل كثيرة في أصناف الزهور والتفضيل فيما بينها.

أما بالنسبة للشعر العربي فقد وجد في الطبيعة ملاذا خصبا لقريحة الشاعر العربي، يلتجئ إليها، ويعبر من خلالها عن أفراحه وأحزانه معا، فوصف الطبيعة ظهر في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، حيث تغنى الشعراء بصحرائهم، وتفننوا في وصفها غير أن هذا الوصف لم يتعد الجانب المادي، أما في العصر الأموي العباسي، وبانتقال العرب المسلمين إلى البلدان المفتوحة، وارتقاء حياتهم في شتى مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فزاد هذا الازدهار والتطور على وصف الطبيعة وصف المظاهر المدنية والحضارية والتفنين فيها. واستطاع فحول الشعراء في ظل الدولة العباسية أن يضيفوا إلى الأوصاف المادية للطبيعة حسا وذوقا فائتلفوا معها – الطبيعة – واستغرقوا في نشوة جمالها، وبادلوها عاطفة بعاطفة وحبا بحب، ومن أشهر هؤلاء الشعراء نذكر: "أبو تمام"، "ابن الرومي"، "ابن المعز"، "الصنوبري" الذي لقب باسمه شاعرنا الأندلسي "ابن خفاجة" فنعت ب "صنوبري الأندلس"، ونورد على سبيل الاستشهاد أبياتا للشاعر الكبير "البحتري" يقول فيها واصفا الربيع:

أَتَاكَ الرَّبيعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكاً ... مِنَ الحُسْنِ حَتى كَادَ أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غسقِ الدّجى ... أوائل وردكن بالأمس نَومـــاً
يفتقهـــا برد الندى فكأنـــه ... يبث حديثـــا كان قبل مكتمـــا
فمن شجر ردّ الربيع لباســـه ... عليه كما نشرت وشيا منمّمـــا
أجلّ فأبدى للعيون بشاشـــة ... وكان قذى للعين إذا كان محرما
ورق نسيم الريح حتّى حسبته ... يجيء بأنفاس الأحبـــة نعمـــا[1]

أما شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي، والذي هو موضوع بحثنا ولب اهتمامنا، فقد عرف انتشارا وازدهارا واسعا كبيرا، حتى أصبح هذا الوصف من أهم الأغراض والموضوعات التي عرف بها أهل الأندلس، حيث تهيأت لهم أسباب هذا الشعر ودواعيه فشغفت بها القلوب وماتت بها النفوس.

[1]- شرح ديوان البحتري، إيليا الحاوي، الجزء الأول، الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص 283-284.

ومن هنا نجد تعلق الأندلسيين بالطبيعة، يسرحون النظر في خمائلها، وأخذ الشعراء والكتاب ينظمون دررا في وصف رياضها ومباهج جنانها، وتنوع أزهارها ورياحينها، وشموخ قصورها وأبنيتها، وتعدد أنهارها وبركها، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة الأندلسية الخلابة.

ولعل من أبرز سمات هذا الوصف، التمازج بين أطياف الطبيعة الأندلسية بما تحويه من مناظر جميلة، وبين جمال اللغة ورقة الألفاظ والمعاني والتعابير الدقيقة فازدحم بصورة متنوعة ملونة تمثل البيئة الطبيعية في الرقعة الأندلسية.

ومن هنا تشكلت صورة الأندلس في الأذهان متقاربة في أوصافها وألوانها وقسماتها.

هذه الصورة على العموم تأخذ عطرها وعبقها وملامحها وألوانها من الطبيعة، فهي أقرب إلى الفنية الناطقة وهذا ما جعل الأندلسيين متفوقين في شعر الطبيعة على المشارقة لأن معطيات الطبيعة في البيئتين مختلفة.

ولم تكن الطبيعة العامل الوحيد في ازدهار شعر الطبيعة في الأندلس بل تتداخل عدة عوامل أخرى والتي على رأسها ازدهار الحضارة العربية في الأندلس ازدهارا كبيرا، هذا الازدهار الذي شمل جميع جوانب الحياة الأندلسية، بالإضافة إلى ازدهار مجالس الأنس والبهجة واللهو، حيث كانت هذه المجالس تعقد في أحضان الطبيعة.

ويصف الدارسون عصر الطوائف بعصر الازدهار والترف والغنى وهذا الوصف يبدو ملائما لما ورد في وصف الطبيعة، ولكون عصر الطوائف يمثل عصرا وسيطا بين نشوء الدولة العربية الإسلامية وبين سقوطها في نهاية عصر بني الأحمر، وانشغال عصر بني أمية في هذه النشأة، وانشغال عصر بني الأحمر في الحفاظ على ما تبقى منها، فلم يكن وصف الطبيعة هاجسا يثير انتباه الشعراء في هذين العصرين أكثر من فخرهم، وغزلهم وهجائهم ومدحهم، لذا كان في طليعة الأسباب أن يأخذ وصف الطبيعة حيزا في عصر الطوائف هو الاستقرار السياسي الداخلي، والترف المادي والفكري والغناء، وصفاء النفوس.

كل ذلك جعل من الطبيعة هاجسا من هواجس النفس الأندلسية هذا الهاجس قاد بقدر ما إلى التحرر من معاني البداوة التي عكف عليها الشعر العربي في الأندلس وتحديدا بعد القرن الرابع الهجري.

فالمجتمع الأندلسي تمتع بمداخلات ثقافية قائمة على علوم العربية وآدابها، ومداخلات بصرية تمثلت بما رآه الأندلسيين من طبيعة تستثير العواطف وتحرك الخيال، كل ذلك جعل الشعر مادة هذا المجتمع طبعا وسليقة، فبلغ فن وصف الطبيعة في الأندلس – ولاسيما في منتصف القرن الرابع الهجري في الأندلس– مبلغا متقدما، إذ تمازج مع العرف الاجتماعي. فصار وصف الطبيعة جزءا من

هذا العرف، إذ أنهم يستعملون البيت أو البيتين منه مقطوعة صغيرة كبطاقة دعوة أو بطاقات يتبادلها الأصدقاء والملوك والوجهاء، تجد فيها الابتكار والصورة الجميلة، فجعلوا من الطبيعة إغراءا للحضور وترغيبا بمجالسهم.

ومن بين فحول الشعراء الذين اشتهروا وبرعوا في وصف الطبيعة الأندلسية نذكر "ابن زيدون"، ابن سهل الأندلسي، ابن هاني الأندلسي، حمدونة بنت زياد، وغيرهم. وعلى رأسهم شاعرنا "ابن خفاجة الأندلسي" الذي سيكون شعره في الطبيعة قيد وموضوع بحثنا هذا.

وآخر ما نختم به مدخلنا هذا هذه الأبيات الشعرية لشاعرنا ابن خفاجة التي رأى فيها أن الأندلس هي جنة الخلد، وأنه لا يرضى عنها بديلا فيقول:

يَـــا أهْــــلَ أنْدَلُــسٍ للـــهِ دَرُّكُـــمْ مَاءٌ وَظِلٌ وَأنْهَارٌ وَأشْجَارٌ

مَـــا جَنَّـــةُ الخُلْدِ إلاَّ فِــــي دِيَارِكُمْ ولَوْ تَخَيَّرْتُ هَذَا كُنْتُ أخْتَارُ

لاَ تَخْتَشوا بعد ذا، أن تدخلوا سقرًا فَلَيْسَ تُدْخَلُ بَعْدَ الجَنة النار[1]

[1]- ديوان ابن خفاجة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص 117.

الفصل الأول
وصف الطبيعة
في الشعر الأندلسي

المبحث الأول: البعد التاريخي للقرن الرابع الهجري.

أ. سياسيـــا:

تتفق جميع المصادر العربية و الأجنبية على أن عصر الخلافة الأموية التي سنها الخليفة عبـد الرحمـن الناصر في مستهل القرن الرابع الهجري (ثلاثمائة-ثلاث مائة وخمسون) فالأندلس يعد العصر الذهبي لهذه البلاد من النواحـي الاقتصادية و الاجتماعية والفكرية ، حيث بلغت الأندلس ذروة مجدها، عندما قبض الله لها رجلا حازما يتمتع بمزايا و صفات لا تتوفر إلا في رجل عظيم مثله.

فبد وفاة جده الأمير عبد الله بن محمد(مائتان وخمسة سبعون)فورثـت عنه دولة مضطربة تنخرها النزاعات الداخلية و تحفها الأخطار الخارجية من كل جهـة ، و قد عمل الناصر ، ومنذ اللحظة الأولى على استقرار الجبة الداخلية وتقويتها ، و التصدي إلى الأعداء و المتربصين بالأنـدلس في الخارج ، إذ كانت سلطة الدولة قد ضعفت و هيبتها قد تضعضعت قبل مجيئه فكثر الطامعـون فيها و تعدد الخارجـون في جميع أرجائها ، وكثرت الفتن و الاضطرابات ، فهذا تطاحن عنصري بين العرب و البربر ، و ذلك صراع قبلـي بين العرب أنفسهم ،و ذلك تربص مسيحي على حدود الدولة الإسلامية ، فكان الأمر خطيرا إذا ، على عبـد الرحمن الثالث الذي نصب نفسه خليفة على المسلمين أن يكون في مستوى المسؤولية ، فينهض و يتصدى لكل هذه الأخطار بعزم و قوة .

و الواقع أن الناصر لم تكن تنقصه العزيمة السياسية ، و المقدرة العسكرية لفـرض الطاعة ، و إشاعة الاستقرار في الداخل و تحقيق النصر على الأعداء في الخارج .

فتمكن من القضاء على رأس المنافقين وعميد الكافرين [1] عمر بن حفصون [2] (فعد هلاكه من أسباب الإقبال وتباشير الصنع و انقطاع علق المكروه)[3] .

والتف الناصر إلى الفاطميين الذين كانوا يسيطرون على المغـرب و صقليـة ولهم مطامع في السادة وتكوين دولة شيعية تزاحم الدولة الأموية و لم يكن جهاد الناصر مقتصرا على الجبهـة الداخلية فحسـب ، بل كان عليه أن يسير الجيوش لمحاربة جيوش النصارى المتربصين ، في شمال الدولة وتقويص خططهم (فتدخل بمهارة فائقة في الخصومات التي كانت قائمة بين اليونانيين و القشتاليين والنبريين و اجتهد في إضعافهم وتمكين سلطانه عليهم)[4].

---

1 ابن عذاري المراكشي " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب " مطبعة لندن د ، ط 1951 م- ص171 ج2.

2 هو بن جعفر الاسلامي بن كسمسم بن دميان بن فرعلوش (توفي 306هـ) جده إسلامي انتقل إلى ردنه في أيام الحكم بن هشام ، فاستوطن بها ، وانسل عمر الذي فخم وعظم.

3 ابن عذاري المراكشي " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب " ج2 – ص171 .

4 أنجل جنثالت بالنثيا "تاريخ الفكر الأندلسي " ترجمة حسين مؤنس " مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط1، 1955 ص08

وذلك بفضل جيش قوي اختار عناصره من الموالي و الصقالبة فحصل منه على الطاعة والولاء [1]، وبفضله حقق الانتصارات الكبرى ، وفتح المدن والثغور ، و أبعد مطامع الأعداء ، وكان لهذا كله أثر في بث الرعب و الهلع في نفوس ملوك المسيحيين ، فسارعوا في مهادنته ، وعقد المعاهدات السلمية معه (فمدت إليه الأمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان و أوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من روما و القسطنطينية في سبيل المهادنة و السلم والاعتمال فيما يعن عن مرضاته) [2]و أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين قرطبة وعواصم أوربا ،حيث وفد عليهم رسل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع سنة (336) يحملون إليه الهدايا النفيسة و قد كانت انتصارات الناصر السياسية والعسكرية هذه سببا في بث الرعب والهلع في نفوس الأعداء و الطامعون ، كما كانت أيضا مدعاة فخر و اعتزاز لدى الأندلس فانطلق الأدباء و الشعراء منهم يسجلون تلك الانتصارات في قصائد رائعة من ذلك قول ابن عبد ربه:

يا ابن الخلائف ان المزن لو علمت نراك ما كان منها الماء ثجاجا
والحرب لو علمت بأسا تصول به ما هيجت من حمياك الذي اهتاجا
مات النفاق و أعطى الكفر ذمته وذلت الخيل الجاما وإسراجا

حتى يقول :

يا ابن الخلاف لن ترضى و لا رضيت حتى عقدت لها في رأسك التاجا [3]

هذه هي الفترة التي شغلها حكم الناصر، و يرى المؤرخون العرب و الأجانب أن التاريخ الإسلامي على إمتذاذه لم يشهد عصرا أزهى من عصره ، حيث شهد أكبر تغيير في البنى السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية والفكرية ، وبلغت الدولة في عهده ذروة مجدها .

و بعد وفاة الناصر تبدأ خلافة ابنه الحكم المستنصر الذي بويع لثلاث خلون من رمضان سنة ثلاثمائة و خمسون [4]–ثلاثمائة وستّة وستّون" و أول ما وجه حكمه على الصعيد الخارجي هو تلك الاعتداءات المتكرر على حدود الدولة من قبل الإفرنج بعد أن نكثوا بعهد كانوا قد و قعوه مع والده [5] لكنه قضى عليها ، وامتدت سطوت سطوة الحكم المستنصر و سلطانه إلى عدوة المغرب فزاحمت دعوته دعوة الشيعة في هذه البلاد و خطب له منا برها ، و مع أن المستنصر كان كثير الفتوح كوالده أيضا ،إلا أن شهرته و عظمته لم تكن في ميدان السيف ، والنزال ، بل في ميدان القلم و العلم والأدب.

---

[1] المرجع نفسه ، ص08

[2] المقرئ التلمساني " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " تحقيق إحسان عباس – دار صادر ، بيروت ،د ، ط ،1968.ج 01 ص354.

[3] "ديوان بن عبد ربه " تحقيق محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة (1300–350 هـ) بيروت د ، ط 1989 .ص35 37.

[4] ابن عذاري المراكشي " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب "ج2 .ص233.

[5] عبد الحميد العباسي " وصف الطبيعية في الشعر الأندلسي " دار السلام –دمشق .د.ط.1987م– ص12 .

و بعد وفاة الحكم المستنصر عام ستة وستون وثلاثمائة ولي ابنه' هشام المؤيد ' ونظرا لصغر سنه تولت أمه ' صبح البشكنسية ' تسيير أمور الدولة يساعدها في ذلك الحاجب جعفر بن عثمان ألمصحفي [1] ضده ، فأعد الحاجب ألمصحفي جيشا لمواجهتهم بقيادة المنصور بن أبي عامر" ثلاثمائة وسبعة وستّون –ثلاثمائة واثنان وتسعون" وكان حينئذ يتولى خطة الوزارة [2] فتمكن من صدهم وهزيمتهم ، و منذ ذلك اليوم أخذ نجمه في الصعود ، وتمكن حبه من القلوب لما اتصف به من مقدرة عسكرية وشجاعة ، و رجاجة عقل ، فحدّثه طموحه بعظائم الأمور ، فتغلب على الخليفة "هشام " وحجبه عن النّاس إلاّ القليل النّادر، و أخذ يتآمر على رجال الدولة فيضرب بعضهم ببعض باسم الخليفة هشام وخطه و توقيعه فحطهم عن مراتبهم [3].

هكذا تغلب ' المنصور العامري ' على الخليفة الأموي هشام ومنعه من التصرف ، واستأثر بالملك دونه ، و محا رسم الخلافة بالجملة ، و لم يبق هشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر [4] و تذكر المصادر أن المنصور خاض ما يزيد على الخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم تنتكس له راية ، ولا هزم له جيش [5].

توفي المنصور سنة اثنين وتسعون و ثلاثمائة بمدينة سالم في أقصى شرق الأندلس، و أوصى أن يدفن معه ما جمعه من غبار المعارك التي خاضها [6] ، و أن تكتب هذه الأبيات على شاهد قبره :

أثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبدا و لا يحمي الثغور سواه[7]

وقد استمر حكم العامر بين بعد المنصور وراثة في أبنائه ، فبعد المنصور جاء ابنه المظفر (ثلاثمائة واثنان وتسعون–ثلاثمائة وتسعة وتسعون) وسار في الدولة سيرة والده في الغزو والسياسة ، فعمّ الأمن و ساد الرخاء و ظلّت الأمور كذلك حتى اطل نذير الشؤم ممثلا في أخيه عبد الرحمن الملقب شيحول(تسع وتسعون و ثلاثمائة) معلنا انتهاء فترة الاستقرار و الازدهار التي عرفتها الأندلس ، و بدأ فترة الخراب و الدمار ، وهي المعروفة في التاريخ " الفتنة البربرية " وقبل الحديث عن الفتنة بجدر بنا أن نستعرض من إيجار الأسباب المباشرة التي أدت إلى نشوبها و الآثار التي تركتها و خاصة على الناحية الثقافية .

---

[1] عبد الحميد العباسي " وصف الطبيعية في الشعر الأندلسي " ص13.
[2] ابن عذاري المراكشي " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب "ج2 .ص253 254.
[3] المقرئ التلمساني " نفح الطيب " ج1، ص398.
[4] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها ، من الجزء نفسه .
[5] عبد الحميد العباسي " وصف الطبيعية في الشعر الاندلسي " ص14.
[6] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
[7] ابن عذارى المراكشي " البيان المغرب "ج2 .ص801.

من المعروف أن بلاد الأندلس تكاد تكون قارة يعيش عليها مزيج عرقي ودِيني من السكان ، وهذه العناصر التي سادت الأندلس وتمازجت و تفاعلت هي : العرب ، و البربر، الموالى المولودون، ، أهل الذمة من اليهود والنصارى ، بالإضافة إلى عنصر آخر جاء نتيجة الحروب وتجارة الرقيق " هو الصقالية "[1] .

أما العرب فكان ينتابهم دوما الشعور بالتميز عن هذه العناصر ، فهم الذين حملوا راية الإسلام إلى هذه الديار النائـية ، ولغتهم هي اللغـة السائدة ، فخلق هذا عنـدهم ما يشبه الشعور بالتعالي ، ومن الطبيعـي أن يتمخض عن ذلك ردة فعل من جانب العناصر الأخرى التي تشعـر بالامتعاض والكره ، و بذلك يطمح كل عنصر في السيطرة على بقيّة العناصر الأخرى .

و مما زاد من خطورة هذه الظاهـرة ، اعتماد الخليفة " عبد الرحمـن الناصر " على عنصـر الصقالية و تقديمه على العرب و البربر ، فعظمت بذلك منزلتهم ، وقويت شوكتهم ، فصاروا من ذوي المال ، والجاه ، والنفوذ .

أما المنصور ابن أبي عامر فقد اعتمد على العنصر البربري منذ تولي مقاليد الحكم في قرطبة ، وذلك بعد أن يقضي على جماعة الصقلب وفتك بهم، و فض عروتهم [2] فكانت نتيجة اعتماد الناصر على الصقالية ، واعتماد المنصور على البربر ضربة قاتلة للروح العربية التي أحـست بتزعزع مكانـتها ، وضعف هيبـتها ، و تضاؤل امتيازاتها ، و انتقال مقـدرات الأمور إلى غيرها ، و رأى العـرب في ذلك انتقالهـم و تعديـا على حقوقهم ، و إنكارا لدورهم ، فأوعزت صدورهم و ازداد حقدهم و الملاحظ أن الاعتماد على هذه العناصر لم يشكل خطرا على أمن الدولة و استقرارها في فترة الخلافة ، و عهد المنصور بن أبي عامر ، نظرا لأن مقاليد الحكم كانت مجتمعة في أيدي حكام أقوياء حازمين خصوصا أثناء حكم المنصور – الذي كان يحكم الدولة بيد من جديد.

ومن هنا نرى أنه بمجرد تلاشي قبضة المنصور على الدولة بدأ الكثير من أمراء الصقالية ، والبربر ، يملون إرادتهم على الدولة و يتدخلون في شؤون الحكم ، و تعيين أو خلع الخليفة [3] .

وكان من نتيجة ذلك كله أن قامت من حرب أهلية عصفت بالدولة الأموية ، واقتلعت دعائمهـا، و كانت بداية لعهد دام ثلاثا وعشرين سنة (ثلاثمائة وتسعة وتسعون –أربع مائة واثنان وعشرون) كله مآسـي و آلام وأحزاب تقع مسؤوليته الكاملة على كاهل البربر [4].

---

[1] الصقالية :هو إسم كانوا يطلقونه على أسرى الحرب من جميع البلاد الأوروبية ، وكل من وقع في أيدي المسلمين من الرقيق *أحمد أمين "ظهر الإسلام " لجنة التأليف و النشر ، القاهرة ط3–1952 1953 ،ج3 ص06.

[2] ابن عذارى المراكشي " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب "ج2 .ص263.

[3] المقرئ التلمساني " نفح الطيب " ج1، ص428–429.

[4] السيد عبد العزيز سالم " قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس " دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت –د.ط 1981، 1982 ،ج01 ص120.

هذه هي الفتنة التي اطلعت على الأندلس برأسها البشع مع ولاية عبد الرحمن شنجول ستة 399 ، وكان رجلا مذموما ، مكروها من طرف العامة لمجونه و استهتاره [1] وقلة فطنته و مهارته بأمور السياسية .

فتحينوا الفرصة للقضاء عليه ، و انتخبوا في غيابه محمد ابن هشام الجبار الأموي الملقب بالمهدي ، ولما وصل الخبر عبد الرحمن قفل راجعا إلى قرطبة فانتفض جيشه من حوله ، و أعدم ، وأحذر ر أسه إلى المهدي لما عرفوا من سوء تدبير عبد الرحمن [2] .

غير أن المهدي كان يظهر لهم الكراهية لما كان من مناصرهم و تأييدهم للدولة العامرية ، فأوصد بذلك الأبواب دونهم ، فأوجس منه البربر خيفة ، و شعروا انه ينوى القضاء عليهم ، فشرعوا في التآمر عليه ، و اجتمع رؤساؤهم ، وقدموا على أنفسهم سليمان بن الحكم المستعين (ثلاثمائة وأربعة وخمسون-أربع مائة و سبعة هجرية) و أصبح البربر القوة الأولى التي واجه بها سليمان خصمه المهدي ، و هزمه في وقعه قنتيش سنة أربع مائة هجرية [3] ودخل البربر قرطبة و أعاثوا فيها فسادا واستباحوا دماء أهلها ، ونشروا الخراب والدمار في ربوعها ،وقتلوا أجلة علمائها[4].

ولكن المهدي التجأ إلى طليطية طالبا معونة ملوك برشلونة المسيحي (ريموت يوريل و أخوه أرمنجول) مقابل التخلي مقابل التخلي لهما عن مدينة سالم ، و بفضل هذه المساعدة استطاع أن يسترجع قرطبة في لقائه مع جيش المستعين في وقعه عقبة البقر ، لكن المستعين تمكن من هزيمته مرة في وادي أراه ، وقتل المهدي.

مما زاد في النتائج الخطيرة لهذه الفتنة ، هو اعتماد الأطراف المتحاربة على القوى المسيحية مقابل شروط و تنازلات مهينة ، كان يتنازل بموجبها عن بعض الثغور [5] و الحصون الإسلامية للنصارى ، مقابل المساعدة في القضاء على الخصم .

و أخيرا تمكن المستعين من دخول قرطبة مرة أخرى في شوال سنة أربع مائة وثلاثة هجريّة وقتل هشاما المؤيد سرا ، و خرج العامريون إلى شرق الأندلس فرارا من بطش البربر ، وقسم المستعين بعض الكور الأندلسية إرضاء لهم [6] واتقاء لشرهم ، ولكن حكم المستعين لم يدم طويلا ، فقد كانت نهايته على يد علي بن حمود (407-408هـ) سنة 407 هـ ، وتقلد بن حمود

---

[1] المقرئ التلمساني " نفح الطيب " ج1، ص426.
[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها، من الجزء نفسه.
[3] ابن عذارى المراكشي " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب "ج2 .ص89.
[4] محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي" جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس – مكتب نشر الثقافة الإسلامية – القاهرة ط1.1952/ ص237.
[5] ابن عذارى المراكشي " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب "ج1،ص91.
[6] المقرئ التلمساني " نفح الطيب من حسن الأندلس الرطيب " ج1، ص429.

الحكم وتلقب بالناصر [1] وافتتح عهده بإنصاف المظلومين وضرب البربر ، و أذلهم ، وأحس الناس في عهده بالأمن لأول مرة منذ نشوب الفتنة، واستمر الحكم في الأسرة الحمودية سبع سنين، عاد بعدها إلى بني أمية التي زالت دولتهم زوالا نهائيا سنة أربع مائة واثنان وعشرون هـجرية، وبانتهائهم انتهت الفتنة التي شغلت ثلاثة وعشرون سنة، ودخلت الأندلس بعد ذلك عهدا من التمزق والانقسام تمثل ذلك في حكم ملوك الطوائف، حيث قامت على كل ناحية من نواحي الأندلس مملكة ضعيفة هزيلة ودب بين هذه المسالك[2] الخلاف والشقاق، واستند التنافس بين حكامها على تشييد القصور وإقامة المجالس، واختيار الألقاب الملوكية.

والذي يهمنا من استعراض الحياة السياسية في الأندلس في القرن الرابع الهجري، هو الغربة في الوقوف على معرفة الظروف السياسية التي كانت سائدة في هذه الفترة، بل نرى مدى تأثير الناحية السياسية في الأوضاع العامة العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

[1] المرجع نفسه، الصفحة نفسها، من الجزء نفسه.
[2]- عبد الحميد عباسي، "وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي"، ص 18.

ب- اقتصاديا، زراعيا

لما دخل العرب الفاتحون الأندلس، وفرغوا من حركة الفتح في السنين الأولى شرعوا في تهيئة الظروف التي تمكنهم من الاستقرار كالزراعة وغيرها من الحرف التي تضمن لهم العيش الكريم.

وقد اعتبر الفاتحون ما أخذوه من الأرض "غنيمة" منذ البداية واعتبرت بقية الأرض التي لم تؤخذ عنوة أرض صلح تؤدي عنها الجزية.[1]

بدؤوا في استصلاح الأرض وإعدادها للزراعة بحفر الآبار، وبناء القناطر والجسور على الأنهار، وجلب المياه، وغرس الأشجار، وقد سعى الأمراء في سبيل تنمية الزراعة وتشجيعها، وأمدوا القائمين عليها بالرأي والمال.

وظل الاهتمام بالزراعة متواصلا في مختلف العهود والظروف، وزاد من الاهتمام بهذا الجانب الحيوي في مطلع القرن الرابع هجري عند قيام الخلافة، وثبوت أركانها واستقرار الأوضاع بشكل تام، فاستحدثت وسائل جديدة للزراعة والري...، وأدخلت أنواع أخرى من النباتات والأشجار مثل الزيتون والفستق، والموز، والنخيل والليمون وقصب السكر، وأزهار كالياسمين والريحان والورد بأنواعه.

ومما زاد في تحسين طرق الزراعة زيادة مردودها، واستخدام الأساليب العلمية المبنية على التجارب الزراعية على أيدي خبراء مسلمين، فظهرت مؤلفات في علوم الزراعة ذات مستوى عال استفادت منها الفلاحة الأندلسية أياما استفادة، مثل كتاب "الفلاحة" لابن بصال.[2] وكتاب "زهر البستان ونزهة الأذهان" للطغنري.[3]

وكتاب المقنع في الفلاحة لأبي عمر أحمد بن محمد بن حجاج وهو ينقل عن العلماء القدماء من يونانيين ومشارق وكتاب "الفلاحة" لأبي زكريا يحي بن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي، وهو ينقل عن كتاب ابن بصال، ويشيد التجارب الزراعية التي قام بها.

إن كثرة هذه المؤلفات الزراعية التي ظهرت في هاته الفترة وبعدها تعطينا طباعا عما وصلت إليه العبقرية الأندلسية في مختلف ميادين الحياة، وتدل دلالة واضحة على مدى اهتمام الأندلسيين بالجانب الفلاحي، وعلى المستوى الرفيع الذي وصلت إليه الزراعة بوصفها مصدرا أساسيا للعيش، فقد كانت تجلب النباتات والأشجار من شتى أصقاع العالم، وتجري عليها التجارب المختلفة لمعرفة الخصائص الزراعية والطبية لكل صنف.[4] ومن الطبيعي أن يكون لكل ذلك أثر طيب على المردود

[1]- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1985، ص 13.
[2]- المقري التلمساني، "نفح الطيب للحسن الأندلسي الرطيب"، ج03، ص 151.
[3]- عبد الحميد عباسي، "وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي"، ص 21.
[4]- المرجع السابق ذكره، ص 22.

الفلاحي، فازدادت المحاصيل زيادة ملحوظة ورافق ذلك زيادة في الثروة أيضا، غير أن حياة الناس لم تكن دائما رفاهية ونعيما بل كانت تصيبهم المحن والمجاعات من حين لآخر.

ففي مطلع القرن الرابع هجري، وفي بداية عهد الناصر أصابت الأندلس مجاعة وقحط بعد مضي حوالي خمسين سنة على مجاعة أخرى كانت قد حلت بالأندلس، لكن رعاية الخليفة الناصر خففت من آلام الناس وكثرت الصدقات والتبرعات للمحتاجين.

وفي عهد الحكم المنتصر حلت بالأندلسيين محنة أخرى تمثلت في مجاعة عظيمة أخرى، وسرعان ما هب الحكم ورجال دولته للتغلب عليها، والحد من آثارها وذلك سنة 353هـ.[1]

وكأن الله سبحانه وتعالى أراد بهذه المصائب اختبار عزائم الحكام ومقدرتهم على مواجهة الشدائد والصعاب، إذ كانت المجاعة تصيب الأندلس في عهد كل حاكم من حكام القرن الرابع هجري، فبعد عبد الرحمان الناصر وابنه الحكم، ها هو عهد المنصور بن أبي عامر يشهد هو كذلك محنة تمثلت في قحط وجفاف أصاب الأندلس.

ولا يمكننا القول بأن المحن والمجاعات هو الجفاف وانحباس المطر في كل الأحوال، وإن كان سببا رئيسيا، بل إن الفتن الداخلية والحروب التي كانت تنشأ بين الحين والآخر كان لها نصيب وافر في ذلك، إذ بسببها يضطر كثير من الفلاحين إلى مغادرة مزارعهم للالتحاق بهذا الفريق أو ذاك، أو الهجرة إلى أماكن آمنة، فينعكس ذلك سلبا على الفلاحة فتقل المحاصيل، ويحدث الجوع والفاقة.

[1]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

صناعيا وتجاريا:

تحسنت أحوال المسلمين بعد الفتح، وحصل هناك نوع من الاستقرار نتيجة لممارسة حرفة الزراعة، وازدهارها فيما بعد، فنشأت المدن وتوسعت توسعا كبيرا، حتى كانت قرطبة تفوق كثيرا من مدن أوروبا.[1] وأنشئت بهذه المدن الصناعات المختلفة مثل صناعة السفن التجارية والعسكرية على المدن الساحلية، كاشبيلية ومالقه ودانية، وصناعة الأسلحة في طليلة، وصناعة المجوهرات المرصعة والجلود في قرطبة، والخزف المذهب في مالقه.

واشتهرت المرية بأنواع الصناعات النسيجية، وكان بها من طرز الحرير ثمانمائة طراز.

وأحدثت بقرطبة دار للشكة لأول مرة في عهد عبد الرحمن الأوسط، وقد بلغ دخلها في عهد الناصر من الدراهم والدنانير في كل سنة مائتا ألف دينار[2] وكان من الطبيعي أن ترافق هذا النمو الصناعي، حركة نشطة في التجارة الداخلية والخارجية، فنشأت الأسواق في قرطبة العاصمة، وغيرها من المدن الأندلسية الأخرى، ونشأت بها مراكز تجارية مزدهرة حتى أن بعض الشوارع والأحياء فيها كان يحمل أسماء بعض الحرف والصناعات فهناك شارع القصابين[3] أو اللاحامين وسوق العطارين والسراجين... إلخ

أما التجارة الخارجية فكان يشتغل بها أسطول تجاري أندلسي، بين الأندلس، ودول المشرق وأوروبا، بما توفر لديه من إمكانات وموانئ في هذه البلاد مثل شواطئ كورسيكه وساردينيه وإيطالية.

ج- اجتماعيا:

احتوت بلاد الأندلس منذ الفتح الإسلامي عناصر سكانية مختلفة في الدين والعرق، من عرب وبربر وموالي ومولدين وأهل ذمة من يهود ونصارى يضاف إلى ذلك جماعة الصقالبة.

ولما كانت الحياة العقلية والاجتماعية لأي أمة من الأمم هي وليدة بيئتها بكل ما تمثله هذه البيئة من مظاهر جغرافية وطبيعية وبشرية، وما يتركه ذلك من أثر في أوجه النشاط الإنساني. فإنه جدير بنا أن نستعرض في إيجاز العناصر السكانية التي يتكون منها الشعب الأندلسي وما يتميز به هذا الشعب من صفات انعكست في إنتاجه الأدبي وفي الشعر منه بصفة خاصة.

افتتح المسلمون الأندلس في أواخر القرن الأول للهجرة في جيش كبير بقيادة طارق بن زياد، وكان العرب يمثلون الأقلية في هذا الجيش إذ أكثريته من بربر شمال إفريقيا، والعرب الذين دخلوا

---

[1]-أحمد أمين، "ظهر الإسلام"، ج 03، ص 06.
[2]- المقري التلمساني، "نفح الطيب من حسن الأندلس الرطيب"، ج01، ص 211.
[3]- السيد عبد العزيز سالم، "قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس"، ج01، ص 181.

الأندلس ينتمون إلى قبائل غربية مختلفة فمنهم "العدنانيون من هاشميين وأمويين، ومنهم اليمنيون من كهلانيين وأزد... وانضم إلى هؤلاء في الفتح مصريون وشاميون وعراقيون".[1]

ثم استمر تكاثر عدد العرب بعد ذلك نتيجة الهجرة المتواصلة من المشرق. أما البربر فقد أخذت أعدادهم في الازدياد على مر الأيام خصوصا في عهد المنصور بن أبي عامر[2] الذي استجلب عددا كبيرا منهم عدوة المغرب.

وكان البربر سريعي التأثر والاندماج في المجتمع الجديد أكثر من العرب فتعربوا في مدة وجيزة حتى صاروا في عداد عرب الأندلس فيما بعد وهناك أيضا عنصر الموالي المكون من ثلاث مجموعات هي:

الذين دخلوا مع الفتح الإسلامي، أو الذين دخلوا بعده، ثم دخل من أهل البلاد في ولاء الأسرة الأموية، وكان لهم الدور البارز في مساعدة عبد الرحمن الداخل والتمكين له، وقد تعاونت العناصر الثلاثة السابقة –العرب البربر والموالي على إرساء دعائم الإسلام والعروبة والتمكين لهما في الأندلس.

المولدون: كانت الأغلبية من الجيش الفاتح الذي دخل الأندلس تتكون من الشباب غير المتزوجين أو من الذين لم يتمكنوا من إحضار زوجاتهم من المشرق نظرا لبعد المسافة، وظروف الفتح، ولما استقروا في الأندلس حاولوا تكوين أسر لهم فاختلطوا بأهل البلاد من الإسبانيين والصقالية وبالبربر شركائهم في الفتح، وذلك عن طريق المصاهرة فتزوجوا منهم، ومن هذا التزاوج نشأ عنصر المولدين.

أما العنصر الآخر فهو **الصقالية**، وعلى هذا العنصر كان اعتماد الخليفة الناصر لدين الله في مستهل القرن الرابع الهجري حين أنشأ منهم جيشا لتوطيد سلطانه، وقد أطلق يدهم في كل شيء مما كان لهم الأثر السيء على الدولة الأموية، وعلى الأندلس بشكل عام، وكان لهم دور في إحداث الفتنة التي عصفت بالبلاد.

وقد ظلت هذه التسميات العربية قائمة حتى نهاية القرن الثالث الهجري، أما بعد ذلك فقد اختلطت هذه العناصر وانصهرت مع بعضها، مكونة شعبا أندلسيا.

ويضاف إلى هذه العناصر العرقية عناصر دينية، أو ما يسمى بأهل الذمة، اليهود والنصارى الذين عاشوا في كنف المسلمين في جو من الحرية والتسامح الديني، محافظين على دينهم وعاداتهم.

---

[1]- أحمد أمين، "ظهر الإسلام"، ج03، ص 01-02.

[2]- عبد الحميد عباسي، "وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي"، ص 27.

لاشك أن هذا الامتزاج السكاني سيطرح علينا سؤالا عن الصفات والمميزات التي اكتسبتها هذه العناصر في جذورها وأصولها الأولى، ثم أثر هذه العناصر على بعضها، بكل ما تحمله من هادات سلوكية وصفات جسمانية على تكوين الشعب الأندلسي الواحد.

يلخص لنا المقري صفات أهل الأندلس في النص الذي رواه عن صاحب فرحة الأندلس إذ يقول: "أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الظليم، وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عند الخضوع، وإثبات الدنية هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم، وحبهم لها، بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم، ونكائهم، وحسن نظرهم وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحدة أفكارهم، ونفوذ خواطرهم، يونانيون في استنباطهم للمياه، ومعاناتهم لضروب الفراسات، واختيارهم الأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع، وأحذق الناس بالقروسية وأبصرهم بالطعن والضرب".[1]

وما شاع عن الأندلسيين حبهم الشديد للنظافة واعتناؤهم بها، يقول المقري في ذلك: "وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم".[2]

ومن صفاتهم أيضا، حبهم للعلم والعلماء، ومن ثمة كان علماؤهم متقنين لفنون علمهم، لأنهم يسعون إليها مختارين تدفعهم إلى ذلك الرغبة الصادقة في التحصيل.

وكان للشعر والشعراء مكانة خاصة في نفوسهم، ومن هنا لا نستغرب المكانة الراقية التي حصل عليها شعراؤهم في مختلف العهود.

ومن صفات الأندلسيين ولعهم الشديد بالغناء، والموسيقى وتهافتهم على مجالس الطرب، حتى ليكتفي الواحد منهم بالقليل من الخبز مع الغناء.

وقد شاع عن الأندلسيين أيضا تدينهم الشديد، وتمسكهم بالدين، وإذا كان هناك منقلبون من ربقة الإيمان فهم قلة.

[1]- المقري التلمساني، "نفح الطيب"، ج03، ص 150-151.
[2]- المصدر نفسه، ج01، ص 223.

د- فكريا:

الواقع أن الدارس إذا حاول استكشاف ومعرفة ثقافة الأندلس بعد الفتح مباشرة، فإنه يجد صعوبة في الحصول على شيء من ذلك، إذ أن الظروف لم تكن مواتية للعلم والدراسة في هذه الفترة التاريخية المضطربة، بسبب انشغال المسلمين بمواصلة الفتح، وتثبيت سلطانهم في هذه الديار، وبسبب حداثة عهدهم بهذه البيئة الجديدة، جغرافيا وبشريا، فهم لاشك بحاجة إلى فترة زمنية يتأقلمون فيها لمواجهة الظروف الجديدة، وعلى الرغم من ذلك كله كانت هناك أولويات لهذه الثقافة، كان الدافع الأول لوجودها دافع ديني، وتمثل ذلك بتعليم اللغة العربية بالقدر الذي يمكن معه قراءة القرآن الكريم، الحديث الشريف، وتحفيظهما.

كما كان المانع من انتعاش الثقافة في هذه الفترة أيضا، هو كثرة الاضطرابات والفتن بين العرب والبربر الفاتحين من جهة، وبين الإسبان بل وبين العرب أنفسهم فهذا قحطاني يتعصب لقحطانيه وهذا عدناني يدافع عن عدنانيته... إلخ.

ولما بدأت الأحوال في الاستقرار نسبيا بعدم قيام إمارة قرطبة ودخول عبد الرحمن الداخل أخذ المسلمون يلتفتون إلى العلم ويعنون به.

ومن الوسائل التي اتبعوها في تحصيلهم للعلم وتحقيق غاياتهم في ذلك ما يلي:

1- إرسال بعثات طلابية إلى المشرق من أجل التحصيل العلمي، والارتواء من منابع الثقافة الإسلامية في مواطنها الأصلية، ثم العودة بعد ذلك إلى الأندلس من أجل التدريس والتأليف، ونذكر من هؤلاء العلماء الذين رحلوا إلى المشرق: "يحي بن يحي الليثي، وقد قصد المدينة المنورة، وتتلمذ على خيرة علمائها كالإمام مالك – رضي الله عنه- وأخذ عنه كتابه المسمى (موطأ مالك) وبواسطته انتشر المذهب المالكي في الأندلس، وكان الإمام مالك معجبا بشخصيته فسماه "عاقل الأندلس".[1]

ومن هؤلاء العلماء من كان يتخصص في دراسة القرآن وعلوم الدين دون سواها كالتفسير والحديث، وهم الأغلبية الغالبية، ومنهم من يتخصص في دراسة الفقه وعلم الكلام كابن حزم الظاهري وغيره، ومنهم من خرج طالبا الأدب كابن عبد ربه صاحب "العقد"، وأبي العباس أحمد الشريشي[2] جامع مشاهير قصائد العرب، وغيرها كثير: ومنهم من تخصص في النحو كابن مالك صاحب الألفية، ومنهم من طلب التصوف كمحي الدين بن عربي، ومنهم من رحل في طلب الفلسفة كابن زهر، أو طلب الأخلاق وعلم السياسة كأبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب "سراج الملوك".

[1]- المصدر السابق ذكره، ج02، ص 09.
[2]- المصدر السابق ذكره، ج02، ص 115.

2- دعوة بعض العلماء المشارقة إلى القدوم إلى الأندلس للتدريس والتأليف ليفيد أهله من علمهم وخبرتهم، فأرسل الخليفة عبد الرحمن الناصر في طلب أبي علي القالي (288-326هـ)، وكان القالي أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين.[1]

ومنذ وصوله إلى الأندلس شرع القالي في نشر العلم ورواية الشعر والنثر.

ومن العلماء المشارقة الوافدين على الأندلس: صاعد البغدادي[2] الذي شد الرحال إلى الأندلس في ولاية المنصور بن أبي عامر، وكان عالما باللغة والأدب والأخبار، سريع الجواب حسن الشعر، طيب المعاشرة ممتعا.[3]

والحقيقة أن جهود كل من المقالي، وصاعد البغدادي تضافرت في صنع الثقافة الأندلسية وإرساء دعائمها، فقد تخرج على أيديهما علما قادوا فيها بعد الحركة اللغوية والأدبية في بلادهم. إذ بفضل هذه الهجرة المتبادلة بين الأندلسيين، والمشارقة تشكلت طبقة من العلماء والأدباء الأندلسيين، وراحت تؤلف الكتب، كابن عبد ربه الذي ألف "العقد الفريد" ونقل فيه ثقافة المشارقة للمغاربة، وابن حزم الظاهري صاحب "طوق الحمامة" وغيرها كثير، وعن طريق هذه الهجرة أيضا دخلت الكتب والدواوين المشرقية قديمة وحديثة، كدواوين الشعراء الجاهليين، ثم شعراء العصر العباسي كبشار ومسلم بن الوليد، وأبي تمام وابن المعتز وابن الرومي، وتأثير هؤلاء على شعراء الأندلس غير خاف خصوصا في شعر الطبيعة.

3- الاهتمام بالكتب وإقامة المكتبات، الأمر الذي أدى إلى تنشيط الحركة العلمية والأدبية وإغنائها، وقد كان الخليفة الحكم المستنصر قدوة في ذلك، حيث سعى شخصيا للحصول على الكتب من كل مكان، وبذل في سبيل ذلك الأموال الطائلة إذ "كان له في القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية عمال مكلفون باستنساخ كل الكتب القيمة قديمة كانت أو حديثة، وكان قصره حافلا بالكتب وأهلها، حتى بدا وكأنه مصنع لا يرى فيه إلا نساخون ومجلدون ومزخرفون".[4]

4- تشجيع الأمراء والخلفاء للعلم وإكرام أهله، فأغلب هؤلاء الحكام من هو أديب أو شاعر أو عالم، فنزاهم يتسابقون بأنفسهم إلى حلبة العلم والأدب، ويساهمون فيه بما تنتجه عقولهم وقرائحهم.

وهناك أسباب أخرى ساهمت في نشوء الحركة الفكرية والأدبية وازدهارها في الأندلس، منها طول مدة الحكم التي حكمها بعض الحكام، فأثر ذلك في استقامة الثقافة وتطورها، مثل فترة الداخل (مائة وثمانية وثمانون-مائة واثنان وسبعون) والناصر (ثلاث مائة -خمس مائة وعشرون)، والمنصور

[1]- أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، "وفيات الأعيان وابناء الزمان"، دار صادر بيروت، د.ط، ج01، ص 226.
[2]- المرجع نفسه، ج02، ص 488-189.
[3]- المرجع نفسه، ج01، ص 226.
[4]- بالنثا آنجل، "تاريخ الفكر الأندلسي"، ص 10-11.

العامري (ثلاث مائة وسبعة وستون-ثلاث مائة واثنان وتسعون) ونحو ذلك ثم كان من الجو الثقافي العلمي الملائم الذي خلقه العلماء لأنفسهم حيث كانوا يبتعدون عن السياسة ما أمكنهم ذلك رغم الفتن والقلاقل التي كانت تحيط بهم في كل جانب.[1]

كما لا يمكن أن ننسى عوامل المنافسة الشديدة بين الحكام وسعيهم إلى اجتذاب أكبر عدد من الأدباء والشعراء والعلماء، وخاصة في عهد ملوك الطوائف الذي عده المؤرخون عهد انحطاط وتفككك سياسي، ولكنه عصرا ازدهار وتطور ثقافي.

وقد انصب اهتمام المسلمين الفاتحين منذ دخولهم الأندلس على تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن، والأداة الأولى لفهمه وتدثره، وهذه طريقة متبعة في الأندلس دون غيرها، يخالفون فيها أهل المغرب، والمشارقة الذين كانوا يبدؤون بتعليم القرآن وتحفيظه أولا، ثم تأتي العلوم الأخرى بعد ذلك.[2]

وقد اعتمد الأندلسيون في تدريسهم اعتمادا شبه كامل على الكتب المشرقية التي كانت تصلهم مع العلماء المشارقة الذين وفدوا إلى الأندلس أو مع طلاب الأندلس العائدين من المشرق. ومن هنا كنا نرى سمات الثقافة المشرقية مطبوعة في إنتاجهم الشعري والأدبي، دون أن يكونوا مقلدين تقليدا أعمى للمشرق في كل شيء.

ومن الطبيعي ألا تبقى الأندلس عالة على المشرق، بعد النهضة الثقافية التي تحققت لها بأفكار وأقلام أبناءها بمشاركة علماء المشرق التي تنكر.

والواقع أن الأندلس وجدت ذاتها في هذا الميدان – مع مطلع القرن الرابع الهجري بين حكم الناصر وآخر حكم المنصور بن أبي عامر وبعده.

وفي خضم هذه الحركة العلمية والفكرية المتنامية في الأندلس خصوصا مع مطلع القرن الهجري، يجدر بالمرء أن يتساءل أين يقع الشعر من هذه الحركة، وإلى أي مدى كان الاهتمام به:

إن سلطان الشعر كان يفرض نفسه على الساحة الأدبية والفكرية منذ بدايتها في الأندلس، وذلك راجع لطبيعة تكون ونشوء هذه الفكرية ذاتها، وهذا لعدة أسباب نوجزها فيما يلي:

– طريقة التدريس التي اتبعها الأندلسيون، فهم يبدؤون بتدريس اللغة والشعر قبل الانتقال إلى تعليم القرآن الكريم وعلومه – كما مر معنا- وهذا الأسلوب يخلق لديهم ولا شك ميلا طبيعيا لحب الشعر وتذوقه.

– حب الأندلسيين الفطري للأدب وتذوقهم للشعر، وتدارسهم له وحفظ ما تيسر لهم من عيون الشعر العربي، فشاعت بذلك بينهم الثقافية الأدبية والشعرية على الخصوص.

---

[1]- أحمد أمين، "ظهر الإسلام"، ج03، ص 17.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، ط2، بيروت، 1961، ج01، ص 38.

– تشجيع الأمراء والحكام للشعر وبذلهم للشعراء، وكان هؤلاء الحكام أنفسهم يقولون الشعر بدءا من الأمير عبد الرحمن الداخل حتى نهاية القرن الرابع الهجري وبعده أيضا.

– البيئة الأندلسية الفاتنة، طبيعة كانت أو عمرانية، وما كان لها من أثر كبير على نفوس الناس وأحاسيسهم، فرقت عواطفهم وهذبت أذواقهم، وصقلت مواهبهم فحفزتهم ذلك براعة انفردوا بها على غيرهم.

– وكان لتركيبة المجتمع الأندلسي، وتعدد عناصره الدينية والعرقية أثر واضح في تكون الحركة الشعرية وانتشارها وتوجيهها، لكن إذا حاولنا تتبع شعراء النصف الأول من القرن الرابع الهجري، لا نكاد نعثر إلا على قلة قليلة ممن اخترقت شهرتهم الآفاق، وكان لهم حضور فاعل على ساحة الشعر، أمثال ابن عبد ربه، ويوسف بت هارون الرمادي، وأستاذ يحي بن هذيل، وجعفر بني عثمان المصحفي حاجب المستنصر وابن القوطية وابن فرج الجياني.[1]

ولا بد أن نشير في نهاية حديثنا عن الحركة الفكرية إلى نقطة مهمة، وهي أن الوضعية المزرية التي كان يحياها شعراء الأندلس منذ انقضاء العهد العامري، وبداية الفتنة دفعت بالشعراء إلى الهجرة ومغادرة قرطبة إيثارا للعافية، وطلبا للسلامة وبحثا عن لقمة العيش التي أصبح الحصول عليها في قرطبة خاصة أمرا غير متيسر، كما حدث ذلك مع ابن دراج القسطلي[2] وانعكس في كثير من قصائد ديوانه.

أما بعد هذه الفترة وفي ظل ملوك الطوائف، فإن الوضع قد اختلف واجتمعت المصادر والمراجع التي تحدثت هذه الفترة – رغم أنها فترة اضطراب سياسي لا مثيل له– إنها فترة ازدهار العلوم والآداب لم تشهد الأندلس لها مثيلا عبر تاريخها[3]، ويرجع سبب ذلك إلى تعدد العواصم المشجعة على العلم والأدب، وتنافس ملوك هذه الدول فيما بينهم[4]، ومحاولة كل واحد منهم اجتذاب أكبر عدد ممكن من الشعراء والعلماء ليباهي بهم غيره، وإذا كان لكل ملك من ملوك الطوائف ميزة يتميز بها عن بقية الملوك الآخرين، فإن الذي يجمع بينهم جميعا هو حبهم للعلم وتذوقهم للشعر.[5] وإيثارهم له وتشجيعهم لأهله، والبذل في سبيله، وقد كانت عناية بني عباد بإشبيلية أعظم وأشمل وخصوصا في عهد ملكهم الشاعر إلهام والفارس المقدام المعتمد بن عباد.

---

[1]- عبد الحميد عباسي، "وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي"، ص 51.
[2]- أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1965، ص 10-11.
[3]- أحمد أمين، "ظهر الإسلام"، ج03، ص 42-43.
[4]- شوقي ضيف، "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1960، ص 431.
[5]- عبد الحميد عباسي، "وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي"، ص 56.

فعصر الطوائف، رغم كونه عصر انحطاط سياسي عميق، إلا أنه يعد بحق عصر الحضارة الفكرية المتجددة والتقدم العلمي المثمر، والإنتاج الشعري المزدهر الذي لم تعرفه الأندلس عبر تاريخها الحافل.

المبحث الثـــانـــي:

الطبيعـــة في الشعـــر الأندلســـي :

أ. الطبيعـــة الخضـــراء:

مـــن خلال قراءة الأخبار و الروايـــات يتبيـــن لنا أن القرن الرابـــع كان حافلا بشعـــر الطبيـــعة، و إن كان ما وصلنا منه يعد شيئا يسيرا للغاية بالمقارنة ما ضاع منه وهو كثيـــر ولا شك. وكذلك الشعراء الذين تناولوا هذا اللون ، و قلما وجد شاعرا لـــم يقل في هذا ، حتى ليخيل للمرء أن وصف الطبيعـــة كان مقصورا على الأندلس و الأندلسيين دون بقية خلق الله ، كيف لا تكون لهم ذلك و قد خـــص الله سبحانه بلادهم بخصوبة التربة ، واعتـــدال المناخ وكـــثرة البخار والأنهار ، وارتفاع الجبـــال و التلال و انبـــساط السهول و كثرة الخيرات ظاهرا وباطنا ، فبدأ كل شيء يدعو للمتعة و الانتـــشاء فارتموا في أحضان الطبيعة يسرحون و يمرحون و لسان حالهم يردد:

يا أهـــل أندلـــس لله دركـــم ماء وظـــل و أنهار و أشجـــــار
ماجنة الخلـــد إلا في ديـــاركم و لـــو تخيـــرت هـــذا أختـــــار
لا تحسبوا في غد أن تدخلوا سعرا فليس تدخل بعد الجنـــة النـــار [1]

و لعل من مظاهر كلف الأندلسيين و شغفهم بالطبيعة أن أصبح الواحد منهم ينتظر قدوم فصل الربيع بلهفة وشوق كأنّما ينتظر غائبا عزيزا طال غيابه ، فالربيع هو ابن الطبيعة و ملكها ، قال الوزير أبو عامر مسلمة [2] مرحبا بوقود الربيع :

أهلا وسهـــلا بوفود الربيـــع وثغره البســـام عند الطلـــوع
كأنـــما أنـــــواره حلـــــــة من وشيء صنعاء السري الرفيع
أحبـــب به مـــن زائـــر زاهـــر دعـــا إلى اللهو فكنت السميع
بث على الأرض درانيكـــه فكـــل ما تبصـــر فيها بديـــــع [3]

ومن آثر الطبيعة في نفوسهم و أحاسيسهم ، و شغفتم بكل مظهر من مظاهرها و سعيهم إلى رسمها و تخليدها –تلك الكتب التي ألفت فيها مثل : "كتاب الحدائق "–لابن فرج الجياني : و"كتاب التشابهات " للطبيب ابن الكتاني ، و "البديع في الربيع " لأبي الوليد إسماعيل بن عامر الحميري،

---

[1] المقرئ التلمساني " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " ج1–ص680.

[2] هومحمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة –الوزير أبو عامر –شاعر أديب ، وعالم .له كتاب سماه" الارتياح في وصف الراح " – المصدر نفسه ج3، ص544.

[3] أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني – " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة "، ص111.

وكتاب "الارتياح في وصف الراح "لأبي عامر بن مسلمة و " الفرائد في التشبيهات "[1] لعلي بن الحسين القرطبي ، ولكن بكل أسف ، فان الكثير من هذه الكتب ضائع ، ولو وصلتنا هذه الكتب كلها لتوفر لدينا ميراث ضخم من الشعر يمكن من الحكم له أو عليه ، و نتجنب بذلك الأحكام العامة المستندة إلى القضايا الجزئية التي أساءت للشعر و الشعراء في الأندلس في كثير من الأحيان.

و إذا حاولنا أن نلتمس العوامل التي ساهمت في ظهور شعر الطبيعة و تطوره فنجد – بالإضافة إلى جمال الطبيعة " عاملا آخرعلى قدر كبير من الأهمية ، وهو حب الأندلس الشديد لبلادهم وتعلقهم بكل ما يمت إليها بصلة ، و قد تنبه الدارسون للأدب إلى هذا الجانب ،ولم تغب أذهانهم هذه الروح الوطنية الفياضة التي لم يألفها بهذا القدر لدى شعراء المشرق حيث كانت العاطفة الوطنية ضعيفة في شعرهم . ويضاف إلى هذين العاملين الرئيسين عامل آخر ، وهو حياة اللهو و المجون التي كان يحياه الشعراء ، هذا بالإضافة إلى دور البيئة المادية و المعنوية في تحريك العواطف واستثارتها لأن معظم الشعراء الذين تم إحصاؤهم من ذوي النعمة و الجاه.إما خلفاء أو أمراء أو وزراء ، أو من كبار رجال الدولة ، و الباقي منهم من ذوي الحظوة و التقديم لدى هذا الخليفة أو ذاك الأمير أو الوزير ، فكثرت بذلك مجالس اللهو الطري ،وشاع الاختلاط بين الرجال و النساء ،،إذا أصبحت المرأة تحتل مكانا عظيما ومنزله مفروقة في المجتمع [2] .

وكثرت عدد الشاعرات في الأندلس، بالمقارنة إلى عددهن في المشرق يدل دلالة قوية على هذه المكانة، وهذا يفسر لنا ظاهرتين بارزتين في شعر الطبيعة، وهما ذاك الامتياز والتداخل بين وصف الطبيعة والمرأة و الغزل ووصف الطبيعة والخمر.

وبعد هذا نمر إلى الحديث – بشيء من الشرح و التحليل – عم أهم العناصر التي تناولها الشعر الأندلسي بالوصف ، والصورة الحقيقية التي تميز بها هذا اللون .

تفتحت أذهان الشعراء الأندلسيين و أنظارهم على البيئة الخضراء من حولهم ، فاستجابوا ا لها بعواطفهم و أحاسيسهم ، وحرك فيهم الربيع ببهجته ونضارته ملكة القول الجميل ، فتنة وسحرا حلالا.

و لنستمع لابن بطال الملتمس يصف الأرض، وقد ابتهجت بحلتها النضرة التي كساها بها الربيع:

تبدت لنـــا الأرض مزهـــوة	عليـنا ببهجـة أثوابـــــها
كأنـــما أزهارهـــــا أكـؤس	حدتهـا أنامـل شرابـــــها
كأنما الغصـــون لـــــها أذرع	تنـــاولها بعــض أصحابـــها
و قد أعجب النور فيها الذباب	فيهـــزج من فـــرط إعجابـــها

[1] المقرئ التلمساني " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " ج1 ،ص604 .

[2] لقد أفرد المقري قسما من الجزء الرابع من نفحه –للحديث عن نساء الأندلس وأخبارهن.

كأن تعانقهـا في الجنـــوب   تعانــق خوذ و أترابـــــها
كأن تــرقـــرق أجفانــــــها   بكاها لفرقة أحــبابهـــــا[1]

و قد تحدث النقاد والدارسون عن هذا التجسيد أو التشخيص المتمثل في إطلاق صفات الإنسان على الطبيعة.

ودائما في إطار الحديث عن الربيع قال ابن القوطية [2] أبو بكر مجملا الحديث عن الربيع وما حل بالطبيعة في زمنه :

ضحك الثرى وبدا لك استبشـــاره   واخضر شاربه وطـر عـــذاره
وربــــت حدائقــه وآزر نبتـــه   وتفطرت أنـــواره وثمــــــاره
واهتز ذابـــل نبت كل قـــرارة   لمـــا أتـــى متطلــعـــــا آذاره
وتعممت ضلع الربا بنباتــــه   وترنمــت من عجمــه أطيــاره
بيضا ، وصفرا فاقعــات صائــغ   لم يـــنأ درهمــه ولا دينـــــاره

.... الخ الأبيات[3]

وصورة تشبيه الأزهار والغصون والعشاق من بني ادم ، ظاهرة منتشرة في الشعر الأندلسي ، نتجت عن ذلك الامتزاج البين والتداخل الواضح بين غرضي الوصف والغزل نظرا للعلاقة الحميمة القائمة بينهما من ذلك قول احمد بن فرج الجياني :[4]

أما الربيع أراك حدائـــق   لبست بها الأيام و الشيا رائعـــا
فكأنما يجتر أذيال الصبـــا   بينـــها البروق أزاهرا وشقائقـــا
من قاني خجل وأصفر مظهر   للوجد كالمعشوق فاجأ العاشقـــا[5]

وكان الربيع بما يضفيه على الطبيعة من فتنة ونضارة : يغري الأندلسيين بالخروج إلى الرياض الخضر ليسرحوا النظر في جمالها: ناسين همومهم ومشاغلهم مصطحبين معهم آلات الطرب والشراب.

---

[1] أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري "البديع في وصف الربيع " معهد العليا المغربية – الرباط ط ،1940، ص114 .
[2] هومحمد بن عمر بن عبد العزيز (367هـ ــ) عالم باللغة أديب شاعر من مؤلفاته "تصاريف الأفعال " "الممدود والمنصور" ، تاريخ افتتاح الأندلس –محمد الحميدي "جذوة المقتبس " ص71.72.
[3] أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري "البديع في وصف الربيع " ص20.
[4] المرجع نفسه ص6.
[5] المقرئ التلمساني " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " ص20.

***وصف الزهر :**

ولع الأندلسيون بزراعة الزهر في حدائقهم وبساتينهم جنبا مع بقية المزروعات ، إلا أن مكانته في نفوسهم كانت في المقام الأول لا يضاهيه أي نوع آخر ,وللزهر أنواع كثيرة منها : الورد، النرجس ، البهار ، السوسن ، الياسمين،البنفسج ، النيلوفر الخيري ،....... الخ.

ففي وصفهــم للورد يقول ابن القوطية مبينا سلطان الورد على سائر الزهور:

نور الربى خول والوْرد سلطان بدا قضى قبل آذار و نسيــان

سر طوته فصول العام حاسدة لفضله إذ له السلطان و الشان

حتى إذا ما الربيع الطلق نسّم به بدا وقد ضاق عن مثواه كتمان

........إلخ القطعة [1]

وفي وصفهم للنرجس يقول احمد بن فرج الجياني :

ونرجس تــظرف أجفانـــه كمقلة قــد دب فيها الوســن

كأنه من صفــرة عاشــق يلبس للبيــن ثيــاب الحــزن[2]

وفي وصفهم للسوسن الذي يشيع بلونه الأبيض جوا من التفاؤل والثقة والأمل إضافة إلى رائحته الطيبة.يقول أبو عامر بن مسلمة :

وسوسن راق مرآه ومخبــره وجل في أعين النظار منظـــره

كأنه أكؤس البلور قد صنعت مسد سات تعالى الله مظهــــره

و بينها ألسن قد طرفت ذهبا من بينها قائم بالملك تؤثــــره[3]

وهاهو أبو القاسم بن العباد يصف الياسمين وينعته فوق أغصانه، فيقول:

وياسمين حســن المنظــر يفوق في المرآي وفي المخبر

كأنه من فوق أغصانـــه دراهم في مطرف أخضـــر[4]

والمقام لا يسمح لنا بذكر جميع الأبيات التي قيلت لوصف الزهر فهي كثيرة.

***وصف الفاكهة :**

الحقيقة إن وصف الفاكهة لم يكن بدعا لدى شعراء الأندلس ، بل وصفها قبلهم شعراء المشرق ، وأفاضوا في الحديث عنها وتميزت أشعارهم بوفرة في الإنتاج ، وغنى في الصور والمعاني ، غير أن

[1] أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري "البديع في وصف الربيع " ص125.
[2] المصدر نفسه ، ص97.
[3] المقرئ التلمساني " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " ج3، ص544.
[4] أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري "البديع في وصف الربيع " ص90.

أشعار الأندلس في هذا الباب وان تميزت بالقلة والتركيز ، فقد اتصفت بدقة التصوير وطرافة المعاني وسعة الخيال .

وهذه الأبيات لابن الدراج القسطلي قالها مترجلا في مجلس في مجالس المنصور العامري يصف فيها طبق تفاح محاط بالبهار يقول فيها :

يا حبذا خجل التفـــاح في طبـــق منضد بـــجنيّ الزهـــر منّســـــق
فيه عيون بهار قد أحطن بـــه نواظـــرا بجفون العاشـــق الأزرق
كأن ماحمّر من تفاحـــة خجـــلا بدرا بدأ قطعة من حمرة الشفـــق [1]

وهناك بيتان في وصف العنب وقدم لهما ابن عبد ربه بقوله:" ومن قولنا في هذا المعنى وقد أهديت سلة عنب":

أهديت بيضاء وسوداء في تلونهـــا كأنها من بـــنات الـــروم والحبـــش[2]
عذراء تؤكل أحيـــانا وتشـــرب أحيانا فتعصم من جوع ومن عطش

وفي وصفهم للسفرجل المحببة إلي النفوس طعما وشكلا ورائحة ، يقول المصحفي:

ومصفرة تختال في ثوب نرجس وتعبق عن مسك ذكي الـــتنفس
لها ريح محبوب و قسوة قلبه ولون محب حلة السقـــم مكتسي [3]

ويقول احمد بن فرج الجياني في وصفه للرمان وإظهار ميزاتـــه :

و لا بســـة صدفـــا أحمـــر أتتـــك وقـــد ملئـــت جوهـــرا
كـــأنك فاتح حق لطيـــف تضمـــن مـــرجانـــه الأحـــمـــرا
حبوبا كمثل لثات الحبيـــب رضابا إذا شئـــت أو منظـــرا[4]

هذا وقد تحدث الشعراء عن بقية الفواكه كالخوخ والجوز والتوت والأجاص وغير لك لكنها لم تحض بما حضي به التفاح والسفرجل والرمان من العناية.

[1] عبد الحميد عباسي " وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي" ج 1، ص131
[2] ديوان ابن ربه ،ص96.
[3] المقرئ التلمساني "نفع الطيب "ج 1،ص594.
[4] عبد الحميد عباسي " وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي" ج 1، ص135.

ب. الظواهـــــر الكونـــية:

التفت الشعراء الأندلسيين إلى الكون ،ووصفوا ظواهره المختلفة ،فتحدثوا عن البرق ، والرعد ،والعواصف و السحب ،وما تجود به من أمطار ، وثلوج، و مياه ، ونظروا من فوقهم إلى قبة السماء الزرقاء في الليالـــي الصافية ، فوصفوا النجوم و الأبراج والمجرات ، و نعتوا القمر ، وتتبعوا مراحله هلالا وبدرا أياما ، و الشمس وكأنها قرص ملتهب في كبد السماء ، وتعاقب الليل والنهار .

وقد تميز وصفهم لهذه الظواهـــر "العلوية "بخصوبة الأخيلة ورقة الألفاظ و عذوبتها ومتانـــة الأساليـــب ووضوحها.

من بينما قيل في وصف البرق كونه ظاهرة كونية شدت انتباه ودهشة الأندلسي عامة والشاعر خاصة و إعجابه وتساؤله هذين البيتين لابن هذيل يصور فيها البرق في حال لمعانه في ليلة ظلماء:

و لقد شفني فأسهر طرفـــي لمع برق يرف في لمعانـــه
شمته والظلام يفتـــر عنـــه كافتراز الزنجي عن أسنانه[1]

ومن أشهر و أجمل ما قيل في هذا الصدد بيتان للطليق المرواني جمع فيها الغمام والرعد والبرق في لوحة بارئة حيث يقول :

فكان الغمـــام صب عمـــيد أنّ بالرعـــد حرقـــة واشتكاء
و كـــأن البر وق نار جـــواه و الحياة دمعه معه يسيل بكاء [2]

أما الريح فمن ما ورد في وصفها ، قول ابن فرج الجياني و هو يصف ريح الشمال اللينة المحببة للنفوس ، وصدر في وصفها عن الواقع الأندلسي :

وربت ريح امتزجـــت بنفســـي مزاج المـــاء بالريـــح الزلال
وجدت لها وبي للـــشوق ما بي كما وجـــد المهجر بالظـــــلال
وبات ثـــرى العقيق ينـــم عنها إليّ بمـــثل أنـــفاس الغوا لي
فقل في نشـــوة من نفـــخ ريح سقيت بها الشمول من الشمـــال[3]

أما السحاب ، فقد نظر إليها شعراء الأندلس نظرة القدماء ، فرأووا فيه سببا للخير والنعمة وقائلا للقحط والجدب ، مع ان البيئة الأندلسية امتازت بجمال المناخ ،وكثرة الأمطار ، إلا أن فترات عصيبة كانت تجتاحها ،يشتاق فيها النّاس إلى قطرة ماء كما تحكي كتب التاريخ ، فيصف ابن شخيص محمد بن مطرق السحاب مشبها إياه بالركب ،فيقول:

---

[1] أبو عبد الله محمد بن الكتاني " كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس " دار الثقافة بيروت –د.ط.1966،ص32 .
[2] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
[3] المرجع نفسه، الصفحة 29–30.

فكأن السحاب في الأفق ركـــب زمّ أحداجـــه وصف قطاره
يذكر الغيث و الرعود حجيجا عجّ أصواتـــه وبث جمـــاره[1]

ومادام الشعراء قد تحدثوا عن الرياح والسحاب، فلا بد أن يجرهم هذا الحديث عن المياه و الأمطار، وقد نعث الشعراء الأنهار و السواقي في تلوثها بالثعابين، ووصفوا الماء وهو ينساب بين الرياض الخضر بالدر المذاب يصافح الزمرد، ...إلى غيرها .

ومن ذلك ما قال ابن هذيل وهو يصف الماء ينساب في مجراه صافيا كالراح:

وماء كمثل الراح جار يزيدني نشاطا فيجري كل معنى على ذهنـــي
يمر علـــى حصبائـــه فكأنـــه صفا الدمع في عقد الفتاة التي أعني [2]

ومما وجدنا أيضا في وصف الماء ما قال أبو عبد الله محمد بن الحسن الطيني، وهو يشبه الماء وهو شيء مادي بشيء معنوي، وهو ماء الوصل:

وكأن مجرى الماء بين سطوحه مجرى مياه الوصل في كبد الصدى
في مثل أصراج الزجاج مرخم ومسطح يحكي احمـــرار المجـــسد [3]

وإذا ذهبنا إلى البحث عن وصف الليل فنجد أن أغلب الشعراء الذين وصفوا الليل هم من الذين عانوا قسوة الزمان ، و تألموا في حياتهم ومن هنا فقد سيطرت في وصفهم نغمة الحزن و الألم و المعاناة و أوضـــح من ظهرت عنده هذه النغمة الشاعر الضرير يحـــي بن هذيل الذي كان إحساسه بالليـــل أعمـــق و أكبـــر من غيره ،ربما لأنه واقع تحت وطأة هذه العاهـــة المزمـــنة التي جعلـــته يعيش فـــي ليل دائم لا صباح له فيقول :

وليل بغى فيه الغراب جناحـــــه و لم ينفصل عنه و لكنه عمـــــى
دجا فكأني من حناياه أوأتـــي جريمة سوء في سريرة مجـــرم
اذا قلت أين الصبح فاضت سدوله علي كأني مستغيث بابكـــــــــــم
و افزع مـــن إطرافه فكأنـــــه براصد إطلاقي نـــــجي التكتـــم[4]

ونظر الشعراء إلى قبة السماء الزرقاء ، في الليالي الصافية تزينها النجوم ،و كأنها مصابيح معلقة ، فراقهم هذا المنظر الخلاب وشد اهتمامهم ، وتنافسوا في وصفهم ،وهذه الأبيات لابن حزم القرطبي يصف فيها النجوم السيارات والثابتة ، ويفخر بمقدرته على رصدها فقال :

---

[1] المرجع نفسه، ص38.
[2] المرجع نفسه ، ص63 .
[3] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
[4] عبد الحميد عباسي " وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي"

أرعى النجوم كأنني كلفت أن ... أرعى جميع ثبوتها و الخنس
فكأنما الليل نيران الجوى ... قد أضرمت في فكرتي من حندس
وكأنني أمسيت حارس روضة ... خضراء مشح بنتها بالنرجس
لو عاش بطليموس أيقن أنني ... أقوى الورى في رصد جرى الكنس[1]

وقد اهتم الأندلسيون أيضا بهذين الكوكبين الشمس، فمن أوصاف الهلال التي اقترنت بالمدح، هذه الأبيات لابن عبد ربه في معرض مدحه للناصر عبد الرحمن بمناسبة مبايعته، وكأننا بالناصر هنا هو الهلال عينه:

بَدَا الهلالُ جَدِيداً ... وَالمُلْكُ غض جديد
يا نعمة اللهِ زيدِي ... مَا كَانَ فِيكِ مَزِيدُ
إنْ كَانَ للصومْ فِطر ... فأنْتَ للدَّهْرِ عِيدُ[2]

وأجمل ما يستحسن في وصف الشمس هذين البيتين لابن دراج فيقول:

وَالشَّمس فِي كَبَدِ السَّمَاءِ كَأنَّهَا ... والنَقعُ يَغْشَاهَا كَسِيُّ مُلْتَئِمُ
وَكَأنَمَا كسف العجاج إذا التفت ... أسد الكماه سَحائب مَطَرَتْ بِدَم[3]

ج- الطبيعة الحية:

إن موضوع الطبيعة الحية التي تناوله شعراء الأندلس بالوصف ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما:

أ- **وصف الطيور**: ويأتي في مقدمتها الحمام، الذي كان نصيبه من الوصف أوفر، وقد يفسر الاهتمام بهذا الطير بالذات "لحبه للناس وأنس الناس به" ولصوته الشجي الذي يعبر عن النفسيات والأحاسيس المرهفة لمعظم الشعراء.

وإلى جانب الحمام، وصفوا الطيور الأخرى، كالحسون، الخطاف، والغراب ثم التفتوا إلى الطيور الجارحة مثل: البازي، الصقر، والنسر والدستبان، وطير الساف، وغير ذلك كثير.

ففي وصف الحمام نورد هذين البيتين للرمادي من قصيدة في وصف الحمامة، وقد رآها تشد، فأثار ذلك في نفسه هموما وذكريات، فراح يخاطبها:

---

[1] المرجع نفسه
[2]- ديوان ابن عبد ربه، ص 64.
[3]- عبد الحميد عباسي، "وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي"، ص 154.

أحَمَامَــةٌ فَوْقَ الأَرَاكَــة بينــي   بِحَيَاةِ من أبْكَاكَ مَــا أبْكَــاكِ؟
أما أنا فَبَكيتُ مِنْ حُرُقِ الهَوَى   وَفِرَاقِ مَنْ أهْوَى أأنْتَ كَذَاكَ؟[1]

وها هي صورة أخرى "لابن هديل" لذكر الحمام، وهو القمري، وقد طوقت جيده حبات الطل الذي يشبه دمعا تساقط على عقد فتاة يغني فوق غصن تغازله الريح وكأنه شارب عربد، فقال:

مُطوق جَوَّدَ فِي شَــدْوِهِ   كأنمــا طُوف إذا جَوَّدَا
مَالَ على الخُوطِ فَشَبَهْتُهُ   بِشَارِبٍ لما انتَشَى عَرْبَدَا
كأنما الطل عَلَى طَوقِهِ   دَمْعٌ عَلَى عقد فتَــاةٍ بَدَا[2]

أما الغراب، فقد ظلت صورته في الشعر الأندلسي، كما هي في الشعر العربي، فهو نذير شؤم مفرق الجماعات. قال أحمد بن فرج الجياني في ذلك:

أمَّــا الغرابُ فمؤذنٌ بِتَغَرُّبِ   وَشَكَا فَصَدَقَ بِالنَّوَى أو كَذَبْ
دَاجِي القناع كأن فِي إظْلاَمِهِ   إظْلاَمُ يَــوم تفرق وَتَــغَرُّبِ[3]

ب- وصف الحيوان: أغلب ما توفر لدينا من شعر في وصف الحيوانات، يتركز أساسا في وصف الخيل، وهذا – بطبيعة الحال- راجع لأهميتها ودورها، لاعتبارها واسطة نقل، وأداة حرب ووسيلة نزهة كما كانت في العصور القديمة دائما.

ثم وصفوا الغزال، وعادة ما يأتي هذا في سياق الغزل، دون أن يغفلوا وصف كثير من الحيوانات الأخرى كالكلاب، والذئاب والحوت.[4] وغير ذلك.

وها هو الرمادي يصف لنا الفرس مع إطفاء بعض صفات المرأة كعادته فيقول:

وأقبَّ كَالمَحْبُوبِ حُسْنًا لم يجد   كَصِفَاتِهِ لوُجْدٍ في تمثــال
فِي سُرْعَةِ الأَوْهَام لَيْسَ كَجَرْيِهِ   فِي البُعْدِ إلاَّ خِلْبَةُ الآمَــالِ
وَمَعَارِضُ لِلرِيح فِي حَرَكَاتِــهِ   لوْلاَ اللّجَامُ لَجَالَ كُلَّ مَجَالِ
ذُو مَنْظَرٍ حَسَنٍ تَضَمَّنَ مَخْبَرا   حَسَنًا فَكَانَ لزينَةٍ وَقِتَــالَ
حَسُنَتْ به الحَرَكات وَالمَعْشُوقُ لاَ   يُصْبِي لِغَيْرِ بَرَاعَةٍ وَدَلاَلَ[5]

وقال أبو عامر بن شهيد يصف فرسه، وقد خرج إلى رحلة صيد، مشبها إياه بالكوكب وبالبرق في السرعة:

---

[1]- عبد الحميد عباس، "وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي"، ص 157.
[2]- أبو عبد الله محمد بن الكتاني، "كتاب التشبيهات"، ص 57.
[3]- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، "نهاية الأرب في فنون الأدب"- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر- القاهرة- د.ط- 1954، ج10، ص 213.
[4]- ديوان ابن عبد ربه، ص 16.
[5]- أبو عبد الله محمد بن الكتاني، "كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس"، ص 193.

وكَأنِّي لمَا انْحَطَطتُ بِهِ أرْمَي الفِلاه، بِكَوْكَبِ طَلَقِ

وكَأنــِي لمّــا طلَبْتُ به وَحْشَ الفَلاه علَى مَطا بَرْقِ[1]

وقال ابن عبد ربه:

وَإذَا جيَادُ الخَيْلِ مَــا طلَهــا المدى وتقطعت من شَأوهَا المبهُور

خَلَّوا عِنَانِي فِي الرِّهــَان وَمَسَّحُوا مِنِّــي بغُرَّةِ أبلـــقِ مَشْــهُور[2]

وقال أيضا في وصف فرس الحرب والقتال:

وَمُقرَبَة يَشقر في النقع كمتها وتَخْضَرُّ حِينًا كُلَّمَا بَلَّهَا الرَّشَحُ

تُرَاهِنُ فِي نَضْحِ الدِّمَاءِ كَأنَّمَا كَسَاهَا عَقِيقا أحْمَرًا ذلك النَّضْح

تطِيرُ بِلاَ رِيشٍ إلِى كل صَيْحَةٍ وَتَسْبَحُ فِي البَّر الذِي مَا بِهِ سَبَحَ[3]

[1]- ديوان ابن شهيد الأندلسي- دار الكتاب العربي – القاهرة- د.ط، د.ت، ص 135.
[2]- ديوان ابن عبد ربه، ص 82.
[3]- المصدر نفسه، ص 43-44.

ك- الطبيعة المصورة.

سبق أن رأينا عند الحديث من الحياة الاقتصادية في الأندلس ذلك "الانقلاب" الذي حدث في البيئة الأندلسية مع مطلع القرن الرابع هجري عندما استتبت الأمور السياسية، وعم الاستقرار وأخمدت الفتن وشاع الرخاء المادي، وتحسنت أحوال الناس، وازدهرت الزراعة وراجت التجارة ونمت الصناعة فتوسعت المدن توسعا صاحبه حرية عمرانية سريعة وواسعة، فارتفعت القصور الفخمة تحيطها البرك والحدائق والبساتين، وتزيينها الزخارف والنقوش والتماثيل.

وفي هذا الجو ترعرع وصف الطبيعة المصنوعة، وتألق في القرن الرابع هجري على زمن الزهراء والزاهرة، والأسطول الأندلسي الضارب في ظل دولة الخليفة الفذ عبد الرحمن الناصر.

فبقدر ما كان إنشاء مدينتي الزهراء والزاهرة، ثورة كبرى في مجال العمارة في القرن الرابع هجري، كان ذلك أيضا تحولا مهما في مجال وصف الطبيعة "المصنوعة" في هذا العصر، والعصور التالية فقد أثارنا الاهتمام والإعجاب معا، وصارتا حديث الناس عامتهم وخاصتهم لما اتصفتا به من عراقة الهندسة وإتقان البنيان وجمال الزخارف والنقوش مما لم يكن للناس به عهد من قبل.

وكان في طليعة المعجبين جماعة الشعراء، فانبروا يجسدون هذا الشعور في مقطوعات شعرية خلدها الزمن بعد ضياع هذه الآثار الرائعة.

وخير ما قيل في وصف الزهراء هذه الأبيات لابن شخيص محمد بن مطرف قال:

هذي مَبَانِي أميـــر المُؤْمِنِـــينَ غَدَتْ   يُزْرِي بهَـــا آخر الدُّنْيَا عَلَـــى الأوَّل

كَذَا الدَّرَارِي وَجَدْنَا الشَّمْسَ أعْظمَهَا   قدْراً وإن قصُرَت فِي العُلو عَن زُحَل

لَقدْ جَلاَ مَصنَـــعُ الزهراء عن أثَـــرٍ   مُوَحَّـــد القدر عن مثـــل وَعَـــنْ مثل

فَـــاقتْ مَحَاسِنُهـــَا مَجْهُودَ وَاصِفِهَـــا   فالقول كالسكت والإيجازَ كالخطـــل

بل فضْلُها فِي مَبَانِي الأرض أجْمَعِهَا   كفضْل دُولـــة بَانِيهَـــا عَلَـــى الدُّوَل

.... إلخ القصيدة.[1]

لم يكن وصف المباني دائما منصبا على القصور فقط، وإنما ذهب أحيانا ليصف بعض المرافق الأخرى، كدار ملحقة أو حمام مجاور أو دكان قريب، أو بستان حافل بالتمر والزهر، أو بركة ماء تحيط بها تماثيل لأسود وحيوانات تنفث الماء من أفواهها، حتى السجن، التفتوا إليه وعنوا بوصفه.

وفي هذا السياق أبيات لأبي عامر بن شهيد، يصف فيها حماما ويمدح أبا عامر بن المظفر، قال:

---

[1]- أبو عبد الله محمد بن الكتاني، "كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس"، ص 73-74.

يَا حُسْنَ حَمَّا مِنَا وَقَدْ غَرَبَتْ شَمْسُ الضُحَى فِيهِ بَعْدَمَا مَتَّعَا
أيْـقَـنَ أنَّ الهِلاَلَ رَاكِبُـهُ فَضَاءٌ لِلحَاضِرِيـنَ وَاتَّسَعَـا
فَانْعَمَ أبَـا عَامِـرَ بِنِعْمَتِـهِ وَاعْجِبْ لأمْرَين فيها قَدْ جُمِعَا
نِيرَانُهُ مِنْ زِنَادُكُـمْ قُدِحَتْ وَمَـاؤُهُ مِـن بَنَانِكُـمْ نَبَعَـا[1]

وخير من صور السجن هو مروان الطليق حيث قال:

فِي مَنْزِلٍ كَاللَّيْلِ أسْوَدَ فَاحِمٍ دَاجِي النَّوَاحِي مُظْلِم الأثْبَاج
يُسَوَّدُ وَالزَّهْرَاء تَشْرُقُ حَوْلَهُ كَالحِبْرِ أودِعَ فِي دَوَاةِ العَاجِ[2]

وقد اهتم الأندلسيون أيضا بتصوير السفن والمراكب والأشرعة المائية، فالأندلس هي شبه جزيرة يطوقها الماء من كل جانب تقريبا عدا الأنهار والجداول التي تخترقها طولا وعرضاء وكنى الشعراء عن السفينة والأسطول بالغربان والخيول، والعقبان وبنات الماء، وهذه الأبيات التالية لابن الآبار أحمد بن محمد الخولاني تجمع هذه الأوصاف:

يَا حَبّذَا مِنْ بَنَاتِ المَاءِ سَابِحَةٍ تَطْفُو لمَّا شَبَّ أهْلُ النَّارِ تُطْفِئُهُ
تُطَيِّرُهَا الرِّيحُ غربانا بِأجْنِحَةِ ال ـحَمَائِمِ البيض للأشْرَاك تَرْزَؤُهُ
من كل أدهم لا يُلفـي به جَرَبٌ فَـمَـا لرَاكِبِـهِ بالقَـار يَهْنُوهُ
يُدْعىَ غُرَابًا وللفتخَاء سُرْعَتُـهُ وهو ابن ماء وللشاهيـن جؤرهُ[3]

وقد حضي وصف الأسلحة اهتمام الأندلسيين لما هذه الأداة القتالية من أهمية لحماية الفرد والجماعة، ونظرة سريعة إلى التاريخ الأندلسي تبين ما عاشته هذه البلاد من حروب وصراعات مع الأعداء المتربصين على الحدود، وفتن وقلاقل في الداخل، وفي هذا الإطار أورد أبيات لابن عبد ربه في وصف السيف، وإبراز دوره من قصيدة له حيث يقول:

وَالحَقُّ أبْلَج وَاضِحُ المِنْهَاج وَالبَدْرُ يَشْرُقُ في الظلام الدَّاجي
والسيفُ يَعْدِلُ مَيْلَ كُلّ مُخَالِفٍ عَمِيَتْ بَصِيرَتُـه عن المِنْهَـاج
وَإِذَا المَعَاقِلُ أرتجت أبوابها فالسيف يَفْتَحُ قُفْـلَ كُـلّ رِتَـاجُ
نَشْرُ الخليفة للخلافِ عَزِيمَةً طوَتْ البِـلاد بِجُحْفَـلٍ رَجْرَاجِ[4]

وفي قطعة أخرى ينقلها ابن هديل ولكن ليحدثنا هذه المرة عن درع فيصفها وصفا خارجيا، ويشبهها بأفعى لنعومة ملمسها فيقول:

---

[1]- ديوان ابن شهيد الأندلسي، ص 126.
[2]- هيليوغرسية غوس، "مع شعراء الأندلس والمتنبي"، تعريب الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1987، ص 78.
[3]- عبد الحميد عباسي، "وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي"، ص 177.
[4]- ديوان ابن عبد ربه، ص 39.

وَسَابغــاتٍ كَأنَّــمــا نُسِجَــت بالآلِ مِمّا صَفَا مُلَمَّعُهَــا
إن اكتسى فارسٌ بِهَا انْهرَقَت كأنه في التُّرَابِ يَزْرَعُهَا
كــأنهــا والأكفُ تُــلمَسُــهَا رَقْشَ الأفاعِي تَكَادُ تَلْسَعُهَا[1]

كما وصفت عدة أسلحة أخرى كالقوس والسهم والسكين والمقص (الجلم) وغيرها.

أما أدوات الكتابة، فقد حضيت هي الأخرى بعناية لائقة وذلك لإيمان الأندلسيين بدور الفكر في بناء حضارة الأمة، وكان القلم أكثر الأدوات وصفا كما نجد في هذه الأبيات للرمادي الذي جعل فيها القلم عن مداده فارسا مغوارا في ذرعه فيقول:

وَفَارسٍ كَّف دِرَاعَــا بِمِدَادِهِ كَمَا لاحَ للأبْصَارِ فِي دِرْعِهِ الكمِّي
إذَا أوْدَعَ الطَّاقَاتِ بَيْنَ حُرُوفِهِ تَألَّفن تــألــيفَ الجُمَانِ المُنــظــمَّ
تَرَاهُ عَلَى آثَار أسطــره وَلَوْ يَــحَــضَّ عَلَــى التَّقدِيمِ لَمْ يُتَــقدِّمِ[2]

والتفت الشعراء الأندلسيين إلى آلات الطرب والموسيقى يصفونها ويتغنون بها في شغف وإعجاب، ولا غرابة في ذلك إذا اعتبرنا المجتمع الأندلسي من أكثر المجتمعات الإسلامية قاطبة حبا للغناء وقبولا له[3]، حتى اعتبر هذا ميزة خاصة من الميزات التي انفرد بها عن غيره وهذه الأبيات لابن عبد ربه يصف فيها عودا فقال:

يَا رَبُّ صَوْتٍ يَصُوغُهُ عَصَبٌ يَنْطت بِسَاقٍ مِنْ فَوْقِهَا قَدَمُ
جَوْفَاءَ مَضْمُومَةٌ أصَابِعُهَــا فِي سَاكِنَاتٍ تَحْرِيكُهَا نَغَمُ
أرْبَعَــة جزئــت لأرْبَعَــةٍ أجْزَاؤهَا بالنُّفُوس تَلْتَحِمُ
أصْغَرُهَا فِي القُلُوبِ أكْبَرُهَا يَبْعَثُ مِنْهُ الشِفَاءُ وَالسَّقَمُ[4]

كما يمكن إدراج وصف النواعير والرحى ضمن الموضوعات الجديدة الأخرى التي عرفها الشعب الأندلسي بفعل النمو الحضاري المتنامي في شتى ميادين الحياة، مثل المدبة والشمع والسراج... إلخ.

وهذه الأبيات للرمادي يصف فيها ناعورتين فيقول:

كَيْفَ لاَ يبردُ الهَوَاءَ لنَهْرٍ بين غرَافتَيْــنِ كَالدِيمتيْــنِ
لَيْسَتَــا فَوْقَــهُ مِنَ الرَشِ وَالطَش عَلَى حَالَةٍ بِمُنْفَكَتين
وَصَفَا المَاءُ مِنْهُمَا إذاَ هُمَا للمَاء بالجَرْي كَالمُعزْ بِلَتَيْنِ[5]

---

[1]- أبو عبد الله محمد بن الكتاني، "كتاب التشبيهات"، ص 208.
[2]- المرجع نفسه، ص 232.
[3]- أحمد أمين، "دهر الإسلام"، ص 33، ج03.
[4]- ديوان ابن عبد ربه، ص 162.
[5]- ابو عبد الله محمد بن الكتاني، "كتاب التشبيهات"، ص 80.

ويقول ابن هذيل على لسان مروحة بعد أن نفث فيها الروح:

أنَا في الصَّيْفِ رَاحَةٌ للنّفوس   وَشِفَاءٌ مِنْ حَرٍّ دَاءِ الرَّسِيس

أنَا زينٌ فِي الكَفِّ ساعَةَ أجْلى   لَيْسَ مِثْلِي يَحُلُّ كَفَّ الرَّئِيس

ونختم بوصف الدراهم والدنانير، وفي ذلك يقول أحمد بن فرج الجياني يصف درهما:

مِن دِرْهَم يَحْكِي بَيَاضَ المُشْتَرِي   وَحُسْنًا وَدِينَارٍ كَمِثْلِ الفرقد

وكَبَائِع السّوسَان يَرْقُدُ بينَهُ   بالجُلّنَارْ الأحمر المَتوقّد[1]

[1]- المرجع نفسه، ص 265.

الفصل الثاني
وصف الطبيعة
في شعر ابن خفاجة

تمهيد: نشأة ابن خفاجة وتكوينه:

ليست هذه الصفحات بالفضاء الكافي لاستيعاب الكلام عن ابن خفاجة، ولا التعريف بشخصيته، فشهرته في المحيط العربي والإسلامي بلغت الخاصة والعامة.

لقد ولد إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبد الله بن خفاجة الشقري في جزيرة شقر، وهي بلدة تقع بين شاطبة وبلنسية، وذلك سنة 450 هـ الموافق لسنة 1058م.[1]

بدأ ابن خفاجة كجميع أقرانه الصغار بالتردد على الكتاب، حيث أبدى مواهبا نادرة، فحفظ القرآن الكريم، ودرس العلوم الفقهية ونبغ فيها، ثم تردد بين مرسية وشاطبة، فسمعمنالفقيه أبي عمران موسى ابن تليد الشاطبي.

"وقد لعب دورا هاما في تكوين شخصية ابن خفاجة، حيث أصبح هذا الأخير رواية لأستاذه"[2]. كانت أسرته على جانب كبير من اليسار، مهتمة بالعلم والأدب، فتهيأت له ظروف مواتية، سمحت له بأن يقبل على طلب العلم والمعرفة ومخالطة الشيوخ، وإشباع هوايته الأدبية.

أدرك ملوك الطوائف ،"ولا أعرفه تعرض لملوك الطوائف بوقتنا، على أنه نشأ في أيامهم ونظر إلى تهافتهم في الأدب وازدحامهم، وهو اليوم بمطلعه من ذلك الأفق يبلغني من شعره ما يبطل الحر، ويعطل الزهر، وقد أثبت بعض ما وقع إلى كلامه، فتصفحه تعلم أنه بحر النظام وبقية الإعلام[3]، ويظهر لنا من خلال كلام ابن بسام أنّ ملوك الطوائف كانوا يتنافسون في تقريب الشعراء ومصانعة الأدباء.

عاش ابن خفاجة في مدينة "شقر" متمتعا بحياة هادئة، فلا عجب أن احتلت هذه المدينة بمظاهرها الساحرة، وطبيعتها التائهة، وأضفى عليها الشيء الكثير من روحه وعاطفته، وقد كانت غايته إبراز محاسنها، إن هذه المدينة التي شهدت ولادته، وسمحت له أن يتخطى الحواجز القائمة في سبيل ِالمجد، لهي في عينيه رمزا للعظمة والجلال، ففيها شب وترعرع، وسما إلى أعلى المراتب.

وقد شخصها كفتاة عذراء يتمنى لقاءها وينتشي عطرها الفواح، فجسدها في هذه الأبيات الرائعة التي كلها شوق وحب وثمن للقاء قريب فيقول:

ألا هَلْ إلى أرض الجزيرة أوْبَة ... فأسْكُنُ أنْفَاسًا وَأهْدأ مَضْجَعـا

وَأغْدُو بَوَادِيهَا، وَقَدْ نَضَحَ النَدَى ... مَعَاطِفُ هَاتِيكَ الربى، ثم أقْشَعَا

[1]- الفتح ابن خاقان القيسي، "قلائد العقبان"، مطبعة التقدم العلمية، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، سنة 1320هـ، ص 231.
[2]- حمدان حجاجي، "حياة وآثار ابن خفاجة الأندلسي"، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982، ص 42.
[3]- ابن بسام، "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، القسم الثالث، المجلد الثاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، سنة 1981، ص 05.

أغَازِلُ فِيهَـا للغزالـة سنـة تحط الصبا عنها من غيم بَرْقَعَا

إلى غاية قوله:

أقلِبُ طَرَفِيْ فِي السَّمَاءِ لعَلَّنِي أشم سَنَا بَرْقٍ، هناك تَطَلَّعَا[1]

لقد عاش ابن خفاجة في هذه المدينة كما قلنا متنقلا بين شاطبة ومرسية، واشتهر في عصره شهرة واسعة عرف الناس قدره وشرفه، وقبلوا شفاعته في أهل بلده ممن كان يفزع إليه في ملم أو مهم.

وقد كان ابن خفاجة ذو حس مرهف يتأنق في مطعمه وملبسه، وعرف خلال اثنين وثمانين عاشها، أنه كان ماجنا لاهيا في شبابه وورعا تقيا في شيخوخته، ينظم شعر الزهد في إطار التعلق بالحياة والفرق من المشيب.

وقد عزف ابن خفاجة عن التكسب بالشعر، لذلك ترك الشعر في عهد ملوك الطوائف لأنه لم يجد الحافز لنظم الشعر، بينما تحركت قريحته بعد قدوم المرابطين، فمدح وزراءهم وقضاتهم، وقد اتصل بثلاثة من أبناء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وهم إبراهيم، وتميم، وعلي، الذي تولى الإمارة بعد وفاة أبيه، وقد مدحهم بقصائد تدور حول التهنئة بالولاية، أو الشكر على الصنيع، أو التوسل بقبول شفاعة أو طلب وعد لم يتحقق.

هكذا عاش ابن خفاجة في جو قامت فيه دولة الأدب والشعر وغصّت مجالس الأمراء بالشعر، فكانت بيوتهم أسواقا للعلماء وأندية للأدباء، وكانت الحياة آنذاك حياة ترف ورخاء، وتبع هذا الشرف الميل إلى اللهو، والمجون وأنواع السرور. وتغلبت هذه الحال على عقول الأدباء والشعراء.

غير أنه (ابن خفاجة) كان وخاصة في الفترة الأخيرة من حياته كثير الشكوك، والاضطراب، تسيطر عليه مشاعر القلق والوسواس، وقد أثرت على سيرته حتى أصبح يخاف من الموت الذي هو القدر المحتوم لكل إنسان طال به الزمن أو قصر، واستولى على حواسه كلها، كل ذلك كان يؤدي به في بعض الأوقات إلى الابتعاد عن الناس والانطواء على نفسه.

وقد كان عزاؤه الوحيد الذي يفرج عنه همه هي الطبيعة فامتزج بها امتزاجا كليا، حتى عرف ب "الجنان" أي البساتين، أو بصنوبري الأندلس. فالطبيعة عند ابن خفاجة هي كل شيء، فقد شغف بها ومزج روحه بروحها، وبادلها الشعور والإحساس، وكان يتحدث إليها كما يتحدث إلى شخص ذي حياة وحركة، كما فعل ذلك في قصيدته مع "الجبل".

هكذا عاش ابن خفاجة يحن دائما إلى أيام الشباب وربما ذكر بعض المجالس والذكريات، وكان كل ذلك في إطار التعلق بالحياة والجمال. ونجد بعض المقطوعات في الزهد تتخلل ديوانه وتصور

[1]- ابن خفاجة، ديوانه، ص 160.

بوضوح الفارق بين حياة الشباب والشيخوخة. بقي ابن خفاجة على هذه الحالة من الوحدة والتفرد ومن الزهد والاتحاد بالطبيعة، واستقبال أصدقائه وتلاميذه، ومحبيه إلى أن أدركه الهرم وأنهكته الأيام، فمات سنة 533 هجرية 1138 ميلادية ودفن في جزيرة شقر، كما أوصى.

وعندما مات ابن خفاجة ترك ديوانا غنيا بقصائد المديح في أمراء المرابطين الذين أعادوا للأندلس الطمأنينة والثقة والقدرة على البقاء قرونا أكثر، وعامرا بقصائد الحنين والشعور بالغربة، وبقصائد الشباب والشيخوخة.

المبحث الأول: مظاهر الطبيعة في شعر ابن خفاجة:

أ- الطبيعة الخضراء:

لقد امتازت بلاد الأندلس بكثرة حدائقها وجمال بساتينها، التي خطفت عقول الشعراء حتى فجرت قرائحهم بالقصائد الغراء، فأكثروا في وصفها والهيام بمفاتنها، وابن خفاجة كان من أكثر الشعراء الذين استهوتهم هذه الطبيعة الأندلسية الجميلة، فأطنبوا في وصف حدائقها والتغني بمحاسنها، ومن بينهم شاعرنا "ابن خفاجة" حتى أصبح يلقب "بالجنان"، كما تدل على ذلك هذه المقطوعة الشعرية الرائعة:

وصقليـــة الأنـــوار تَلوي عِطْفَهَـــا ... ريحٌ، تلف فُرُوعَهَا مِعْطَارُ
عَـــاطى بهَـــا الصَّهْبَاءُ أحْوىً أحْوَرُ ... سَحَّابَ أذْيَال السرى سَحَّارُ
وَالنُّورُ عقد، والغصـــون سَوَالِـــفٌ ... وَالجِذْعُ زَنْدٌ وَالخَلِيـــجُ سِوَارُ
بحديقـــة ظـــل اللمـــى ظلا بهـــا ... وتطلعت شنبا بهـــا الأنْـــوَارُ
رَقَصَ القَضِيبُ بها وَقَدْ شَرَبَ الثَّرَى ... وَشَدَا الحَمَامُ، وَصَفَقَ التَيَّـــارُ
غنـــاء الحف عطفهـــا الوَرَقُ النَدَي ... وَالتفَّ فـــي جَنْبَايهَـــا النُّوَارُ
فتطلعت في كـــل موقـــع لحظـــة ... من كل غصن صفحة وَعَذَارُ[1]

إن الصورة التي جاء بها الشاعر والتي أدخلها في تشكيل لوحته الرائعة، لهي صور تنبع بالحياة، وتفيض بالجمال.

لقد شبه هذه الحديقة بالفتاة الحسناء التي فاح عطرها، فتوزع مع النسيم ثم يذهب إلى أبعد ذلك فيتصورها كأن النور سطع عليها فتلألأ عقدها، وأصبحت أغصان الأشجار سوالفها والجذع زندها وجداول الماء سوارها.

إن شخصية الشاعر هنا تبدو في هذا الحس الشعري وكأنها تهدف إلى إقامة متجانسة بين الذاتين: ذات الشاعر وذات الحديقة، ولو أن الأولى لا تكتمل إلا باكتمال الثانية لأنه صب عليها من روحه وامتزج معها امتزاجا كليا، ثم ساهم في الكشف عن هذه الحديقة، وصورها تصويرا فوتوغرافيا واضحا فأكثر في تشبيهها، وهذا لتوضيح المعنى الذي يقصد إليه أثناء الوصف. إنها وصف رائع لجمال هذه الحديقة التي تعتبر واحدة من جمال الطبيعة الأندلسية برمتها.

إننا نلاحظ البناء الوصفي الذي جاء به ابن خفاجة يتجاوز الاستعارات المتداولة، والتشبيهات المستهلكة، إنه بناء يمنح الشاهر تفردا وأصالة حيث أن الأصالة لا تكمن: "في تقييد بقوانين الأسلوب، بل في الإلهام الذاتي الذي يأبى الإيقاع بطريقة معينة يجري بنيانها دفعة واحدة ونهائية".[2]

[1]- ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم أبو الفتوح، "ديوانه"، دار البيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص 114.
[2]- هيجل، "فكرة الجمال"، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1981، ج2، ص 311.

وَضَمَخَ رَدْعُ الشَّمْسِ نَحْرَ حَدِيقة عَلَيهِ مِنَ الظِلِ السَقِيْطِ جُمَانُ

وَنَمَتْ، بِأسْرَارِ الرِيَاضِ، خَمِيلَة لَهَا النُّورِ ثَغْرٌ والنَّسِيمُ لِسَانُ[1]

لقد أصبحت هذه الحديقة تتبخر في حلي جميل، وهذا فضل الشمس التي نثرت رداءها فزادتها جمالا ورونقا، ثم أضفى عليها الرذاذ المتساقط هالة من الجمال كما شخصها ابن خفاجة ككائن حي، فأزهارها ثغر مبسم، والنسيم الذي يراودها ويثني أعطافها كأنه لسان ينطق.

2- الأشجار:

لقد نالت الأشجار اهتمام ابن خفاجة فوصفها مسهبا في ذلك ذاكرا أغصانها وأوراقها، معتبرا إياها جوهر الطبيعة فيقول:

وَمَنَابِرُ الأشْجَار قَد قَامَتْ بِها خُطَبَاءُ مُفْصَحَةَ مِنَ الأطْيَار[2]

لقد شبه الأشجار الكثيفة الأغصان بمنابر فوقها خطباء فصيحة القول بليغة اللسان، تقوم بإلقاء خطبها على جمهور من المصلين، وهذا لكثرة تغريدها وحسن ترتيبها فوق هذه الأشجار الباسقة.

لقد أكثر ابن خفاجة من تعداد أوصاف جميع الأشجار بمختلف أنواعها وألوانها وأشكالها، وقد قال واصفا شجر الليمون:

ألا أفْصَحُ الطَيرِ، حِينَ خَطَبْ وَخَفَّ لهُ الغُصْنُ، حَتَّى اضْطَرَبْ

فَمَلَّ طَرَبــــاً بين ظل، هَفَــا رطيــب ومـــاء هنـــاك انْتَــعبْ

وَجَلَ في الحديقة أُخْتُ المُنَى ودنَ بـــالمـــدامـــة أم الطرَبْ

وحـــاملـــة من نبـــات القـــنا أمـــاليـــد تعمـــل خضـــر العَذَبْ

تنوب، مورقـــة، عـــن عذار وتـــضحـــك زاهـــرة عـــن شنب

وَتَنْدَى بها، فـــي مهبِ الصبَا زَبَرْ جَـدَّة، أثْـــمرَتْ بِالذَهَـــب

تفـــاوح أنفـــاسهـــا تـــارة وطورا تُغَـــازلُـــهاَ مِـــن كثـــب

فتبســـم، في حالة عن رضا وتـــنظر أونـــة مـــن غَضَـــبْ[3]

يقوم ابن خفاجة بوصف دقيق لهذه الأشجار، التي أصبحت تغرد فوقها الأطيار، حتى حفّ لها الغصن، واضطرب من كثرة تغريدها وحسن صوتها، فوقع بينهما تناسق وتمازج، كما أصبحت هذه الأشجار ملاذا لأهل الهوى يأنسون تحت ظلالها الوارقة، ورفيق أنسهم المدام والكؤوس التي تدار، ثم يقول في عينة تمثيلية أخرى:

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 263.
[2]- ديوان ابن خفاجة، ص 129.
[3]- ديوان ابن خفاجة، ص 21.

وَأَرَاكَةُ ضربت سمـــاء، فَوْقَنَا   تَنْدَى، وَأفلاك الكؤوس تُدَارُ
حَفَتْ بِدَوْحَتِـــهَـــا مُجرَدة جَدْوَل   نَثَرَت عَلَيْهِ نُجُومَهَا الأَزْهَارُ
وكَأنَهَا، وكَـــأن جَدْوَلَ مَائِهَـــا   حَسْنَاءَ شُدَ بِخَصْرِهَا زُنَـــارُ
زَفّ الزَجَاج بِها عَرُوسٌ مُدامة   تُجْلَى، وَنُوَّارُ الغُصُون نُثَـــارُ[1]

في هذه المقطوعة الشعرية يذكر ابن خفاجة منظرا هذه الأشجار التي الفتت حول بعضها مكونة خميلة جميلة مرتفعة ومن كثرة طولها تكاد تعانق السماء، ثم يذكر مجالس الأنس والفرح والشراب، التي تعقد تحتها، وقد زاد من جمالها منظرا الجدول الذي دار حولها، وكأنه سوار ينمق زند امرأة حسناء.

3- الأنهار:

إن كل بلد خصائصه المتميزة التي يمتاز بها عن غيره من البلدان الأخرى، وبلاد الأندلس امتازت بكثرة أنهارها ووفرة خيراتها.

فأغلب المدن الأندلسية تقع تحت ضفاف أنهار كثيرة توفر لأهلها الرزق والماء، كما كانت مجالس أنس وغناء بالنسبة للأندلسيين، وخاصة الشعراء وأهل الفن: "فكان الشعراء الأندلسيين لا يذكرون الطبيعة إلا في رحاب الحب، بل لا يذكرون الحب إلا في رحاب الطبيعة"[2]

وبطبيعة الحال فشاعرنا "ابن خفاجة" كان من بين هؤلاء الشعراء الذين يحبون الطبيعة ويمجدونها، لأنه صاحب إحساس مرهف، وذوق رفيع، قد أثرت الطبيعة الأندلسية الجميلة في نفسه. فجاء شعره متناهي الرقة منمق الحواشي تظهر على سطحه عاطفته الجياشة، فهذه الطبيعة الجميلة التي هيمنت على عقليته ونفسيته قد وصفها وصفا دقيقا. فم يترك مظهرا من مظاهرها إلا وأتى عليه بالوصف، ومن بينها الأنهار بصفتها عنصرا من عناصر الطبيعة الصامتة ويتضح هذا في القطعة الشعرية التالية:

1- المرجع نفسه، ص 119.
2- جودت الركابي، "في الأدب الأندلسي"، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1970، ص 132.

لله نَهْــرٌ ســالَ فِــي بَطْحَــاءَ أشْهى وُرُوداً مِن لَمى الحَسْنَاء
متعطــف مثــل الســوار، كأنــه والزهر يَكْنُفُهُ، مجرّالسمــاء
تدوق، حتــى ظَنَ قُرْصاً مُفْرَغــاً من ضفة، فــي بردة خضــراء
وغدت تحــف به الغصون، كأنها هدب يـحــف بمقلــة زرقــاء
ولطالمَــا عــاطيت فيــه مدامــة صفراء، تخضب أيدي النَدَمَــاءُ
والرياح تَعْبَثُ بالغُصُون، وقد جرَى ذَهَبُ الأصيل علَى لُجَيْنِ الماء[1]

إن هذا النهر وهو يسيل في أرض منبسطة ومسيل واسع لهو أجمل وأبهى من سمرة شفاه الفتاة الجميلة، فهو بالتواءاته ومنعرجاته المختلفة يشبه المجرة التي تحف بها النجوم من كل جانب، وقد زينته الأغصان المتكاثفة التي تحيط بهذا النهر الجميل، كما تحيط الهدب بالعيون الزرقاء الجميلة، وفي هذا الوسط الجميل، لا يزيد ابن خفاجة أن يفوق الفرصة على نفسه فيستقبل جمالية المكان، لعقد فيها مجالس أنس وشراب، "وإذا تتبعنا مبنى وشكل هذه المقطوعة الجميلة، لأمكننا أن نلاحظ أن ابن خفاجة كان موفقا في اختيار ألفاظه وتشكيلها وإخراجها في هذا القالب الأنيق، إنها فعلا لوحة فنية قائمة بذاتها، رسمها ابن خفاجة وأصبغ عليها صبغة رومانسية تنطق من غير نطق أو تفوه".[2]

لقد افتتن شاعرنا بالطبيعة افتتانا كبيرا، وتفوق في وصفها حتى أضحى بلقب "الجنان" وتصرف في وصفها تصرفا حسنا، والوصف كما يقول أحد النقاد هو: "التصرف في أرق فنون القول واختيار الألفاظ التي هي مادة لتصوير الطبيعة"[3]، وابن خفاجة من الشعراء الأندلسيين الذين كانون يمزجون وصف الطبيعة بالمدح، وقد ساعده هذا الوصف على شحن لغته الشعرية فصارت الكلمة تؤدي معناها الدقيق للوصول فيتفاعل معها ويتمازج تمازجا كليا، وهذا ما نلاحظه من السياق العام لقصائده، وفي هذا الصدد نجد ابن خفاجة يصف لنا عواقب نهر فاض فيضانا جارفا فيقول:

الأطم بحر أتَــى طمــا وَأجْرَى كفي سَمَــاء تَجُودْ
فمَا هَوَت تخر هُنَاك البُنَى كَمَا تَتَلَقى المُلُوكُ الوُفُــود
وَبَاتَتَ كَأن عليها صَلاة فبعض رُكُوعٌ وبَعْضُ سُجُود[4]

يصف ابن خفاجة هذا النهر العتي، وهو في حالة هيجانه وفيضانه، فعم ماءه في جميع بنايات "شقر "مسقط رأس شاعرنا، فأصبحت تتساقط كانحناءات الوفود أمام الملوك وهذا لأداء الولا والطاعة، ثم يزيد ابن خفاجة تشبيها آخر لتوضيح المعنى وتكثيفه حتى يصل إلى المتلقي جليا واضحا فيؤكد أن

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 11.
[2]- باقي محمد، "سيكولوجية الحس الروماني"- دراسة في شعر الطبيعة عند ابن خفاجة"- رسالة ماجستير، 1997-1998، ص 43.
[3]- عبد العزيز عتيق، "الأدب العربي في الأندلس"، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 1976، ص 295.
[4]- ديوان ابن خفاجة، ص 159.

هذه البنايات تساقطت وكأنها في سجود وركوع، أثناء تأدية صلاتها ثم ينتقل إلى وصف نهر آخر هائج فيحدد مكان مسيره ويصف معركة الماء السائل فيه فيقول:

وَمُسْحب ذيل للسحَاب بذي الغَضَا بُرُودُ رُضاب المَاء أحْوَى لَمَى المرعى

فقُلْ فِي أتــي قَدْ تَهــادَى كأنــه إذا ما أثْنَــى أعطــافــه حيــة تَسْعَى

ومـــاء مُسِيــل سَائــلَ لقرارة فبين ترى منه حُسَــامًــا تَرى دَرْعَــا[1]

في هذه العينة التمثيلية الدالة، يصف ابن خفاجة هذا النهر الذي أخذ يتهادى وينثني في جريانه، وكأنه حية تلتوي ذات اليمين وذات الشمال، وهو في جريانه ذاهب إلى قراره الأصلي، إنه فعلا آية في الجمال والروعة في الوصف والتشخيص، والتجسيد الكامل ودقة التشبيه.

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 159.

ب- الطبيعة الحية:

1- المرأة:

لقد كانت المرأة إحدى الموضوعات المهمة التي اعتنى بها الرجل منذ القدم كتعبير عن الهموم أو الأفراح الملازمة لمصيرهم، فقد ألم بها إلماما واصفا كل ملمح من ملامحها وعضو من أعضائها، بل وطبع من طبائعها فهي بالنسبة إليه رمز النور والفرح.

لقد تمازج واقع المرأة وواقع الطبيعة منذ القدم في وجدان الشاعر، فالمرأة تتباين عن الطبيعة ظاهرا لكنهما تتآلفان وتتعانقان في التدليل على العافية والجمال، والفرح، وكمال الوجود ومثاله.

ومن الطبيعي أن يحب الإنسان الجمال، فهناك أحاديث نبوية تؤكد أن من أتاه الله وجها حسنا وخلقا حسنا واسما حسنا، فهو من صفوة خلق الله: "وكان المسلمون الأوائل يقدمون للإمامة في الصلاة أقرأهم للقرآن، فإذا كانوا في القراءة سواء فأصبحهم وجها، فإذا تتساووا فمن كانت زوجته أجمل وأحلى".[1]

وإذا رجعنا إلى شاعرنا نجده يصف المرأة بأوصاف مستخرجة من بيئته الجغرافية الجميلة، وقد عبر هذا بشعر مستوحى من المظاهر الطبيعية التي أوحت بها بيئته مازجا إياها بأسلوب عربي رصين متين، وإذا أردنا أن نلقي نظرة حول شعر ابن خفاجة اتجاه المرأة لوجدناه أنه صادق العاطفة رقيق الشعور مرهف الحس.[2]

والشعراء ينقسمون إلى قسمين، شعراء الإباحية، وشعراء الغزل الرقيق الرومانسي و"شاعرنا ينحدر إلى الطبقة الثانية".[3]

❖ **الوجه:**

يعتبر الوجه من أكثر الأعضاء التي طرقها ابن خفاجة في المرأة فوصفه بأوصاف عديدة، تارة بالقمر، وتارة بالكواكب الأخرى مثل المشتري وعطارد:

نَاجَيْتُ مِنْهُ عُطَارداً ولَرُبَمَا   قبّلته فلثّمت وَجْهَ المُشْتَرِي[4]

إن ابن خفاجة استعارة كوكبين من الكواكب السيارة وهو عطارد والمشتري وشبه بهما الوجه وهذا لجماله وحسنه، يقول في موضع آخر واصفا وجه حسناء:

أُغَازِلُ منه الغُصْنَ فِي مَغْرَس النَّقَا   وَأَلثم وجه الشمس في مطلع السَّعْدِ
فـإن لم يُكَنِهَـا أَوْ تَكُنْـهُ فَإِنَّـهُ   أَخُوهَـا كَمَـا قَدَّ الشِّرَاكُ مِنَ الجِلْدِ[5]

---

[1]- باقي محمد، "دراسة في شعر الطبيعة عند ابن خفاجة"، ص 46.
[2]- المرجع نفسه، ص 47.
[3]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[4]- ديوان ابن خفاجة، ص 136.
[5]- المرجع نفسه، ص 84.

إن الشاعر قد اقتصر على بعض الأجزاء من جسم هذه المرأة التي يهواها، والتي تثير في نفسه الاضطراب والهيجان، لقد ذكر قامتها في هذا البيت وشبهه بالصفات المفضلة المستحسنة لديه، وهو الغصن الرطيب، ثم انتقل من وصف القامة إلى ذكر الوجه مع الوقوف على جميع ملامحه وشبهه بالشمس الساطعة في يوم يبشر بالخير والبركات.

❖ **العين:**

أما العين فهي من الحواس التي نالت الحظ الكبير عند شاعرنا، واهتم بها اهتماما كبيرا، فالنظر هو الوسيلة الوحيدة التي تصل بين الرجل والمرأة فانظر إلى البيت الجميل حيث يقول:

عَلَقته أحْوَى اللَّمَى أحْوَرَا عَاطِرَ أنفاس الصبا عاطلا[1]

فهنا يمزج الشاعر بين شيئين، العين الجميلة والنرجس الذي هو نبات من النباتات الطبيعية الفواحة الجميلة، إنه تشبيه يتمثل في عملية الإذابة التي يمارسها الشاعر اتجاه المرأة، ثم يعيد تركيبها في صورة واحدة جميلة مميزة تعبر في الغالب عن معاني الحب الرومانسي الرقيق، ويصف ابن خفاجة العين في بيت آخر فيقول:

لَهُ نَظر، فاتن، فَاتِرٌ يحل قوى عزمتي ضَعْفَهُ[2]

إن عين المعشوقة تمتاز بصفات معينة مثل الفتور والضعف، وغيرها، ولكن هذا الضعف والفتور يوجه ضربات قوية للشاعر، فيتركه طريحا ويمسي ضحية لهذه العيون الفاترة القاتلة:

قاسمني طَرَفُك الضنى أفلا قاسم، جفني، ذلك الوَسَنا[3]

في هذا البيت يرسم الشاعر حالة ضعفه بنظره إلى عين الحبيبة ويشكي كثرة أرقه، وسهره طوال الليل، ومحبوبته تتمتع بالنوم العميق، إنها فعلا شاعرية رقيقة تنبع من قلب رقيق كواه الحب والجوى.

❖ **الخد:**

يتطرق ابن خفاجة إلى عضو حساس في المرأة، وهو الخد فيشبهه بالطبيعة اليائعة لتأكيد نضارة الخد ورونقه، فلونه الأحمر مثل الرياض والتفاح، إنه تصوير لجمال هذه المرأة التي تركت في نفسه أثرا عميقا يقول:

أغيد حُلوَ لَمَّى، أملد يَذكَى عَلى وَجْنَته الجَمْرُ[4]

في هذا البيت نجد ابن خفاجة يصف وجه هذه الحسناء الحلوة اللمس بالجمر الأحمر، وهذا لشدة احمراره، ثم ينتقل في بيت آخر واصفا الخد بالفاكهة، فيقول:

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 2010
[2]- المرجع نفسه، ص 170.
[3]- المرجع نفسه، ص 262.
[4]- ديوان ابن خفاجة، ص 105.

فَيَا لَيْتَ شعري، هَلْ لِدَهْري عَطْفَة فتجمَعُ أوْطَارِي عَلَيَّ وَأوْطَانِي
ميـــاديـــن أوْطـــاري لـــذة لذتـــي وَمَنْشَأ تِهْيَامِي وَمَلْعَبُ غزْلانِي
كَأن لَمْ يَصلني فِيه ظَبْيُ يَقُومُ لِـــي لمَاه وَصَدَغَاهُ بَرَاي وَرَيْحَانِي[1]

كلما رأى هذا الخذ الجميل يغار عليه من الورد، ثم يشبهه بالفاكهة ويتمنى أن تهدى له هذه الفاكهة وهذا من أجل تحقيق الغاية البعيدة التي يرمي إليها. ويقول ابن خفاجة في بيت آخر:

وَسَالَ قَطْرُ الدَّمْعِ فِي خَدِّهِ فرَفَـّ رَوْضُ الحُسْنِ مَمْطُوراً[2]

يصور الشاعر في هذا البيت الدموع عن قالب فني متماسك الإطار، وهذا لتجليات إحساساته وتوضيحاته، إن هذا الدمع يسيل على الخد فيكسبه جمالا وحسنا، وكأنه روض انتعش من كثرة الأمطار.

1- المرجع نفسه، ص 265.
2- المرجع نفسه، ص 111.

2- الحيوان:

تطرق ابن خفاجة إلى ذكر أنواع كثيرة من الحيوانات في شعره، فوصفها وصفا دقيقا باعتبارها مظهرا من مظاهر الطبيعة الحية، التي تزيد في جمالها وحسنها وبهاءها، والتي تدل على صنع الواحد القهار. ومن بين الحيوانات التي ذكرها ابن خفاجة نذكر:

❖ **الطيور:**

إذا تتبعنا وصفه للطيور مختلفة الألوان والأشكال، فنكاد نجد أنفسنا أمام صورة طبيعية تبهر أنفسنا فقد استخدم كل وسيلة تساعد على إظهار مفاتن هذه الطيور، ومن بين الطيور التي وصفها ابن خفاجة نستطيع ذكر طائر الباز الذي يستعمل خصيصا لمطاردة الطيور الأخرى وجلبها للصيادين. ومن الأمثلة الحية التي ذكرها ابن خفاجة حول هذا الطائر، وهو في رحلة صيد نجد هذه الأبيات الجميلة:

طَرَدَ القَنِيصُ بكل قيد طريـــدة ... زَجِلَ الجَنَاح، مورد الأظفـــار

لتفـــة أعـــطافــه بـــحَيـــرة ... مَكْـــحُولـــة أجْفَانُـــهُ بـــنُضـــار

يَرْمِي بِهِ الأَمَل القصي، فينثنِي ... مَخْضُوبَ رَاءَ الظفر والمِنْقار[1]

إنه يقرن هذا الصقر بالفرس في قوته وسرعته في مطاردة فريسته، فمنذ البيت الأول تطالعنا خصائص الافتراس عنده وبخاصة في قوله: "زجل الجناح مورد الأظفار" إذ طبع الصورة بنجيع القتل، فالانفعال هو انفعال عنف وبطش، بل إنه مشهد موت يزهو به القاتل، برداء الدم تلك كانت الصفة العامة التي ألم في مطلع هذه الأبيات.

ثم ينتقل ابن خفاجة إلى وصف نوع آخر من الطيور، وهو القطا الذي هو طائر جهز بغرائز متعددة تثير الدهشة والتفوق، فهناك غريزة الاهتداء، تتوسلها لمعرفة الأمكنة، وخاصة تلك التي تستنقع أو يفيض فيها الماء، كأنها هذه الغريزة مظهر لروعة الطبيعة وجمالها وعبقريتها معا، إنه طائر يفوق الإنسان في فطنته وذكائه، بحيث يهتدي إلى ما يقتصر عنه، ذاك هو موضع الدهشة التي استثارت في شاعرنا الحالة الشعرية، من تأمله ومطالعته الوجود، وعجائب المخلوقات فيه، فهي قادرة على التحليق أميالا طويلة، منتصرة على محن الطبيعة وآفاتها، يقول ابن خفاجة في وصفها:

وَلَرُبَ طَيَار خفيف، قَدْ جَرَى ... فَشَلاً بجـــار، خَلْفَـــهُ طيـــار

من كـــل قاصرة الخُطَى، مُخْتَالَة ... مَشْيَ الفتاة تجر فَضْـــلَ إزَارَ

مَخْضُوبَةُ المِنْقار، تَحْسِبُ أنها ... كَرَعَتْ عَلَى ظماء بكاس عُقَارَ

---

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 130.

لاَ تَسْتَقرّ بِهَــا الأَيَادِي، خشية من ليل ويــل، أو نهــار بَوَار[1]

إنه يتوسل فيها صفة الجمال والمثالية، بحيث تتحقق فيها ذروة الجمال وحسنه، ويعجز المرء أن يتمثل ما هو أكمل منها فهي كالفتاة الجميلة تتبختر في مشيتها وتجر إزارها، وهذا من كثرة تدللها وجمالها.

❖ **الخيل:**

لقد أعجب الشاعر العربي بالخيل كثيرا، واتخذه مطية للزهو والارتحال فهو يصفه معجبا بجماله وكماله، معرضا لكل ملمح أو عضو فيه بالتشابيه والكنايات والاستعارات، التي تمثل الطبيعة المتكاملة فيه لتألف أعضاء جسده وقوته وسرعته، فهو يلحق بالطرائد ويلتف حولها، وابن خفاجة قد أحب هذا الفرس وأعطاه المكانة اللازمة، في شعره فشببه تارة بالنجم وتارة بالشرارة، وتارة بالقدر، فيقول في هذا:

أحْمَى مِنَ النجم، يوم معركة ظَهْرًا، وَأجْــرَى بــه القَدر
اسْوَدَّ وَابْيَضَّ فعله كَرَمــا فَالْتَفتَ الحُسْنُ فِيه عن حَوَر
كَأنَــه، وَالنفوس تَعْشقُــهُ مُرَكَبٌ مِن محاسن الصوَر
فَازْدَدْ سَنَا بَهْجة بدَهْمتــه فالليل أذكــى لغُــرّة القَمَر
ومثل شُكْرَى، على تقبيله يَجْمَعُ بين النَسيــم والزهر[2]

إنه فرس يقحم الغبار، ويبلو لظى المعركة، إنه أشد سرعة من القدر، وهذا نظرا لما ناله من انتصارات في ساحة الحرب والمعركة لذا تعاظمت هذه الصفات والخصائص التي تبرز الصفة البطولية الملحمية في الفرس، لقد اختلط لونه بالسواد والبياض فزاده هذه الصفة حسنا ورونقا.

يقول في بيت آخر يذكر مفر ومكر هذا الفرس في معركة حامية الوطيس، فيقول:

طَرَبٌ، إذَا غنّى الحَسَامُ مُمزق ثوْبَ العَجَاجَة جيئة وَذَهَابَا
قدَحَتْ يَدُ الهَيْجاء مِنْه بَارقــا مُلْتَهبًا يُزْجي القَتَامَ سَحَابَا
وَرَمَى الحفَاظُ به شَاطين العَدَى فَانقضَّ فِي ليل غُبَار شُهَابَا
بَسَامَ ثغرُ الحلي، تَحْسَبُ أنَه كَاس، أثَارَ بِهَا المزَاجُ حَبَابَا[3]

إنه فرس يتقدم إلى ساحة النزال، وكله فرح وطرب، يشترك في المعركة كالإنسان الحي السّوي، دائم الحضور على مسرح المعارك، لقد كان جديرا أن يعظم في نظر شاعرنا، لأنه يقاتل القتال كله لايرتدّ ولايكفّ وسط غبار المعركة،إنّها فعلا بطولة لا تعادلها بطولة، ثم يذكر شجاعة

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 131.
[2]- ديوان ابن خفاجة، ص 107.
[3]- ديوان ابن خفاجة، ص 29.

الفرس في أيام مشهودة من الحروب فيجسدها تجسيدا كاملا على ساحة المعركة مصورا إقدامه وشجاعته فيقول:

وَأشْقَر تُضْرَمُ منه الوَغَى بِشُعْلَة من شُعَل الباس
من جُلّنَار ناظر خَدُّه وَأذنه من ورق الآسي
تَطَّلَعُ للعزة، في وَجهه حَبَابة تَضْحَكُ فِي كَأس[1]

إنه فرس يقتحم القتال، ويخوض المعركة مخلفا وراءه شعلا من غبار وكأنها شعل النار، ثم ينتقل الشاعر إلى تشبيه غرّته البيضاء الموجودة في وجهه بنقاعة الخمر التي تتطاير فوق الكؤوس، وفي الصورة تتألف أيضا الواقعية والمثالية، وتتنامى إحداهما بالأخرى.

[1]- المرجع نفسه، ص 149.

قراءة في قصيدة الجبل:(أشهر قصيدة لابن خفاجة في محاورة الطبيعة):

القصيدة تبدأ بتسعة أبيات قبل أن يصل إلى الحديث عن الجبل وهي مناجاة النفس، والتفكير في الموت واستشعار الوحدة، وثقل بالحياة:

بعيشك هل تَدْرِي أهْوَجُ الجنائــب ... تخب برَحلِي أم ظهُورُ النَّجائـــب
فمَا لُحْتُ في أولى المشارف كَوْكَبًا ... فأشْرَقْتُ حَتى جِئتُ أخرى المَغَارب
وحيدا أنَّهَا تَهَادَانِي الفَيَافِي فَأجْتَلَى ... وجوه المَنَايَـا فِي قناع الغَيَـاهب[1]

من خلال هذه الأبيات تظهر لنا نفسية الشاعر، وهي تعيش حالة من الرهبة والقلق والحزن من الموت، فنرى "هوج الجنائب" و"وجوه المنايا" و"قناع الغياهب" وما يتصل بهذا من مرارة كبرى، والألم اللاذع والقسوة المزمنة التي تتراءى لنا بوضوح وبهذا نلاحظ تأزما للحياة وانتصار للموت دون جدوى، فهذه الحالة النفسية المتأزمة القلقة هي التي جعلت ابن خفاجة يختار معادلا موضوعيا، ليصب إليه همومه، ومعاناته، ولم يكن هذا المعادل سوى الجبل الذي لا يخشى الموت، ولا يرهبه.

وَلاَ جَارَ إلاَّ من حسام مُصَمَّم ... وَلاَ دَارَ إلاَّ فِي قُتُودِ الرَّكَـائِبِ
وَلاَ أنسَ إلاَّ أنْ أضَاحِكَ ساعة ... ثُغُورَ الأماني في وُجُوهِ المَطَالِب[2]

هنا يدخل عامل الزمن الذي هو الفيصل الواحد بين الحياة والموت، والفناء الذي يبلغ أعلى درجاته، فهو تفكير تأملي خاص، فهو من ناحية يرى أن النهاية قد اقتربت، وهذا بفعل الزمن والشيخوخة، ومن ناحية أخرى يرى نفسه كالثمرة التي بلغت نهايتها، إذن لابد من الموت أن يقع عليه يوما، فيبدو أنه في هذين البيتين تعاني مرارة الوحدة والغربة الروحية فهو يعيشها في بطء، مشوب بحالة من القلق وشقاء الضّمير ،فيكسب عبارات غزار قبل أن يحترق ويستحيل إلى رماد، وإذا بالذكريات البعيدة ،ورغبات الشباب ،وأحلام الطفولة ،وكأنّها شريط يجري في اتصال مستمر.

ولَيْــل إذا مـــا قلت قَدْ بَادَ،فانْقضَى ... تَكَشَّفَ عَنْ وَعْدٍ مِنَ الظَنّ كَاذب
سَحَبْتُ الديـــاجي فيــه سودَ ذَوَائِــب ... لأعتنـــق الآمـــال بيضَ تَرائِــب
فَمَزَّقْتُ جَيْبَ اللّيل عن شخص أطلس ... تطلع وضَّاحَ المَضَـــاحِك قاطب
رَأَيْتُ بِـــهِ قِطَعاً مِنَ الفَجْــر أغْبَشَـــا ... تَأمَّلْ عن نجم، تَوقّـــد، ثـــاقب[3]

إنها تجربة حقيقية يعيشها الشاعر، في هذه الليلة الظلماء التي تصر على عدم الانقشاع والانجلاء عن صبح جميل، فهو يتمنى أن يرى النور من جديد فينقذه من وسنه، ويدعوه إلى حياة

---

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 42.
[2]- المرجع نفسه الصفحة نفسها.
[3]- ديوان ابن خفاجة، ص 43.

جديدة، ولكنه في هذه الليلة لم ير إلا ذئبا مبرزا ثغره ضاحكا، هذا الضحك هو عبارة عن تكشر وغضب واضح.

ثم ينقل الشاعر إلى وصف الجبل، فيقول:

وَأَرْعَنَ طماحِ الذؤابة، بَـــاذخ يُطَاولُ أعْنَانَ السَمَـــاء بِغَارِب

يسد مهب الريح عن كل وُجْهَةٍ ويزحم ليلا، شهبـــه بالمَنَاكِـــب

وَقُورٍ على ظهر الفلاة، كأنـــه طوال الليالي، مُفَكّرٌ في العواقب

يَلُوثُ عليه الغَيْمُ سُودَ غَمَـــام لها وميض البَرْق، حُمْرَ ذَوَائب[1]

إن الشاعر يجسد في هذه الأبيات قوة الجبل وروعته وتدفقه ومطاولته لإعنان السماء، وسده لمهب الريح، ومزاحمته للشهب وشدة حيوية الجبل إنما هي امتزاج من حيوية عالم الطبيعة، وهو الرمز عند ابن خفاجة للصمود في وجه الزمن الذي يشمل كل شيء في الوجود، وهي رؤية نابعة عن تأزم نفسية الشاعر وقلقها. إن تجربة المعاناة عند الشاعر الذي يريد أن يصبها على هذا الجبل الذي يرى فيه مهابة ووقارا تبلغ أوج مجدها الفاخر، تنهار عندما يستنبطن ابن خفاجة حقيقتها فالجبل يعاني الشعور بالانكسار والإحباط والضجر بسبب خلوده. وطول بقاءه فقلق من هذا الزمن اللانهائي لأنه يستثقل الوجود فهو نقيض الشاعر الذي يضجر ويقلق من الموت، بينما الجبل كره الخلود وطول البقاء فكأنه يتمنى الموت قبل أوانها:

أصَخْتُ إليه وهو أخْرَسُ صامتٌ فحَدَثَنِـــي ليـــل السُرَى بالعَجَائب

وقـــال: ألا كَمْ كُنْتُ مَلجَـــأ قاتل وموطـــن أواهٍ، تبتـــل، تـــائـــب

وَكَمْ مُرَبِـــي من مُدْلِـــج ومؤوب وقال بظلي من مطـــي وراكـــب

وَلاَطَمَ، من نكب الرياح، معاطفي و زَاحَمَ من خُضْر البحَار غَوَاربي[2]

إن ابن خفاجة يمتزج امتزاجا كليا بالجبل، ويشعر بإحساس شديد يتجسد في العزلة والغربة الروحية، وخشية الموت والفناء، وهو ما يزال يتشبث بالحياة التي أكرهته النكبات على هجرها، لقد صاغ الشاعر هذا الجبل الرمز ليعبر عن ذلته، ويكشف عن قلقه والرغبة في الحياة، رغم المهن التي أصابته من جراء فقدان أصحابه، مع ذهاب المسرات والتجمعات، في أيام كان يعيش جانبا من اللهو والعبث والتصابي، فهذه الذكريات هي التي تجعل الحزن والقلق يعتري الشاعر عند استرجاعها.

فأصبح بذلك الاغتراب والوحدة جوهر يشترك فيه الشاعر والجبل، ويتجسد هذا واضحا جليا في البيتين التاليين:

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 42.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

فَمَا خَفْقُ أيكي غير رجفة أضلع ولا نُـوحُ وُرْقِـي غير صَرْخَـة نَادِبِ

وَمَـا غيض السُّلْـوَانُ دَمْعِـي وإنَّمَا نَزَفَتْ دموعي في فراق الصَوَاحِبِ[1]

فابن خفاجة قد انتقل من نقيض إلى نقيض، من ولع بالحياة إلى الزهد فيها، ومن تفاؤل ونشاط وشباب إلى تشاؤم سابغ، فقد كان لاهيا بنعيمه حتى فوجئ برؤية الأحباب يذهبون الواحد تلو الآخر، وبرؤية قصور الحياة وتجلياته كالشيخوخة والهرم، وكأن هذه التجربة الجادة، تهز نفسه هزا فهو يفضل الموت على البقاء في هذه الحياة التي أخذت معظم أصدقائه:

فَحَتَّى مَتَى أبْقَى، ويَظْعَنُ صَاحبٌ أُوَدِّعُ مِنْـهُ رَاحِـلاً غَيْـرَ آيِـبِ؟

وَحَتَّى مَتَىَ أرْعَى الكَوَاكِبَ سَاحِرا فَمِنْ طَالِعٍ، أخرى الليالي، وغارب[2]

يبدو الشاعر في هذين البيتين في حالة اليأس الكامل من جراء المحن التي أصابته من فقدان أصدقائه، فهو يعيش حالة فراغ كبيرة ومن هنا تأتي التساؤلات في مرارة وحزن حول جدوى بقائه، في الحياة والخيط يربطه فيها، فهو في كل مرة يودع أصدقائه الواحد تلو الآخر وداعا لا رجعة فيه، فقد شبه ذهاب أصدقائه بالكواكب التي تشرق ثم تغيب، فالإشراق علامة الشباب والخصب والنماء، والغروب علامة الموت والفناء والاندثار، إنه تصوير رائع لحالة الموت والفناء والاندثار، ورغبته في الموت دليل على وعيه في إمكانية بلوغ ودنو أجله.

ويأتي البيت اللاحق ليعزّز الأمل في نفسه الطريدة المنكسرة مادا يده إلى الله ليخفف عنه هذه الآلام، ويريح نفسه القلقة المضطربة من هذه الوساوس التي تطغى عليه فيقول:

فَرُحْمَاكَ يَا مَوْلاَيَ دَعوة ضارع يَمُدُ إِلَى نُعْمَاكَ راحة راغب[3]

ثم ينتقل الشاعر إلى بيت آخر فيقول:

فَأسْمَعني من وَعْظه، كل عبرة يُتَرْجِمُهَا عنه لِسَانُ التَّجَارِب[4]

إنه يعبر عن التجربة التي أوحى بها الجبل الرمز، إن هذه التجربة تتلخص في المواعظ والعبر التي أخذها عنه بصفته قد جرب الحياة وذاق حلوها ومرها، وينتقل إلى بيت آخر:

فسَلَّى بما أبْكَي، وَسرَّى بمَا شَجَا وَكَانَ، على عَهْدِ السُّرَى خير صاحب[5]

لقد كانت هذه الشكاوي المتكررة والآهات المستمرة من طرف الجبل، قد أثرت على الشاعر وأدخلت على نفسه الهم والحزن، فانتبه الجبل إلى هذا الأمر، وحينها أراد إدخال شيء من الفرح والسرور على قلب الشاعر المهموم، فكان بذلك خير صديق وخير صاحب، قضى معه ليلة سعيدة كلها

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 42.
[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[3]- ديوان ابن خفاجة، ص 42.
[4]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[5]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

عبر ومواعظ وفي الأخير يقرر الشاعر الرجوع إلى مجتمعه، وإلى حياته العادية، بعدما قضى ليلة هادئة مع صديقه فيقول:

وَقُلْتُ، وَقَدْ نَكَبْتُ عنه لطية سلام، فإنَّا من مُقِيمٍ وذاهب[1]

إن الشاعر هنا قد أزمع الرحيل عن الجبل، وأراد توديعه بشيء من الحسرة والحزن فأبلغه السلام، وثم أكد له في حكمته رائعة "فإنا من مقيم وذاهب"، فالمقيم تعبيرا عن الجبل الذي هو كائن من جماد، لا ينقضي إلا بانقضاء الحياة كلها، وأما الذاهب فهو الشاعر نفسه الذي بلغ من العمر ثمانين سنة ولم يبق له إلا الذهاب عن هذه الدنيا.

إن الشاعر قد تقمص شخصية الجبل، واستخدم الجبل استخداما رمزيا، ليعبر عن ذاته القلقة، ويبوح بسره المكبوت عله يخفف من المعاناة التي أصابته من جراء فقدان لأصحابه وخلانه، ودنو أجله واقتراب موته.

إنها فعلا قصيدة رائعة نلمس فيها أبعادا رمزية وفكرية وفلسفية تظهر من خلالها شخصية الشاعر، فتظهر ملامحها واضحة جلية، لنخلص من ذلك إلى حتمية الموت وسيادة الفناء.

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 42.

المبحث الثاني: عودة الشاعر في محاورة الطبيعة.

أ- الصور البيانية:

1- التشبيه:

إن التشبيه هو أكثر الأساليب البلاغية تداولا بين الشعراء لأنه يؤدي إلى نقل الصور الانفعالية، وإضافة الخيال، والتعابير المجازية عليه، وهكذا يحول الشاعر ظاهرة تشبيهية إلى أخرى أكثر وأشهر منها، متفطنا إلى رموز الظاهرة ودلائلها، وللتشبيه وقع حسن في نفسية المتلقي لما يجد فيه من متعة ولذة، تنسكب على نفسه وتتركه يجنح إلى عالم الخيال الفسيح، ومنها يكون الشاعر قد أدى رسالته التي تتركز حول إصابة المشاعر والضرب على أوتارها.

وسنحاول في هذا المبحث أن نتقصى أهم التشبيهات المتداولة في شعر ابن خفاجة، والمتمثلة في ظواهر الطبيعة الحية والميتة. يقول ابن خفاجة يمدح أحد الأمراء:

ألا هَلْ أطَلَّ الأميرُ الأجل ... أم الشمس حلت برَأسِ الحَمَل

فما شئت من زهرة نضرة ... تردى القضيبُ بها وَاشْتَمَلْ

وَهَزَتْ مَعَاطِفَــهُ والتوى ... بمسرى النسيم الْتِوَاءَ الجَدَلْ[1]

هنا شبه الشاعر ممدوحه بالشمس التي هي مصدر الحياة والضياء والحرارة، إذ لا حياة على البسيطة من دونها، فهو يشبهه بالشمس التي تبعث أشعتها على دولته ورعيته، ويقول ابن خفاجة في بيت آخر مشبها ممدوحه بالريحان:

عَبَقَ الثَّنَاءُ نَدَى الحَيَا، فكأنَّه ... رَيْحَانَةَ مَطْلولةُ الأفيَاءِ[2]

ففي هذا البيت يؤكد على شدة روائح ممدوحه، فهو يفوح عطرا كما تفوح الريحانة المعلقة فوق الأغصان، ذاكرا أداة التشبيه والمشبه به ووجه الشبه، فيصبح هذا تشبيها بليغا.

وهنا بيت جميل تكثر فيه التشبيهات يقول ابن خفاجة فيه:

وَكأنه، وكأن رَجع نشيْده ... فصلَ الربيع وَرَنة المُكَاء[3]

إنه يصف ممدوحه بمظهر من مظاهر الطبيعة، فالصورة التشبيهية هنا، تتمثل في فصل الربيع الذي هو مصدر الخير والجمال، ذاكرا فيه أداة التشبيه والمشبه والمشبه به، حاذفا وجه الشبه وهذا النوع من التشبيه عند الباغيين يسمى تشبيها مرسلا أو مجملا، واستخدم ابن خفاجة أيضا أهم عنصر من عناصر الحياة وهو الماء، في وصف ممدوحه وتشبيهه في سلطته وقوته ورحمته فيقول:

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 214.
[2]- المرجع نفس، ص 14.
[3]- ديوان ابن خفاجة، ص 14.

وكأنَه، من عَزْمِه فِي رَحْمَةٍ مُتَرَكّبٌ مِنْ جَذْوَةٍ في ماء[1]

فقد شبه عزم ممدوحه في القوة والسلطة والبطش بالشعلة النارية، وشبه رحمته ورفقه على رعيته بالماء الذي هو مصدر الحياة وينبوعها الفياض الذي لا ينقضي ولا يزول.

ومن التشبيه البليغ التي ذكرت فيه كل لوازمه نجسده مجسدا في هذا البيت الجميل:

تَخَايَلُ، نَخوةً بهم المذاكي وتَعْسِلُ، هَزَةً، لهم الرِّمَاحُ

لهم هِمَمُ، كَمَا شَمَخت جبال وأخلاقٌ، كما دمثت بطاح[2]

فهو يصف ممدوحه بطول الهمم التي بلغت ذروة الجبال وبدماثة الأخلاق ولطافتها وهذا النوع من التشبيه يزيد في توضيح المعنى وتجلياته، ومن خلال هذه الدراسة تتولد لنا فكرة عن تمكن ابن خفاجة من ناصية اللغة والبلاغة، وهذا مما زاد في جمال ورونق شعره.

2- الاستعارة:

إذا تصفحنا ديوان ابن خفاجة فسنلاحظ أنه استخدم الاستعارة في شعره أكثر من التشبيه، ذلك أنه أدرك قيمتها، فأخذ يوظفها في شعره حتى صارت كأنها الحياة تؤنس بها النفوس، وتعلق بها القلوب. يقول القاضي الجرجاني في تعريفه للاستعارة: "فأما الاستعارة فهي أعمدة الكلام، عليها المعول في التوسع والتصرف، وبها يتوصل إلى تزيين لفظي وتحسين النظم والنثر..."[3].

ولقد وظف ابن خفاجة جميع الاستعارات المختلفة مستعينا بمظاهر الطبيعة الحية والميتة، وهذا نظرا لتمتعه بحس رقيق وخيال واسع، وإحساس شديد وتركيبته النفسية الرقيقة، صبغتها الطبيعة الأندلسية الجميلة، ومن أمثلة الاستعارات الكثيرة في شعر ابن خفاجة نجد قوله:

مُتَقسم الألفاظ بين محَاسن من رَدْفِ رابية، وَخَصْرَ قرار

وَأرَاكَة سَجَعَ الهَدْيَلُ بِفَرْعِهَا وَالصُّبْحُ يُسْفِرُ عَن جَبِين نهار

هزت له أعْطَافَهَا، ولَرُبّمَا خَلَعت عليه مَلَاءَةَ الأنْوَار[4]

في هذه المقطوعة الشعرية يصف ابن خفاجة شجرة كثيفة الأغصان وقد أخذ الحمام يردد أغانيه وترنيمته الجميلة فوق أغصانها، كما أن هذه الأشجار اشتاقت لرؤية الصباح، فهي تود لقاءه في لهفة واشتياق، لتعبر عن فرحتها بلقائه، كما أن الصبح بدوره يود لقاءها ليستمد منها النور والحرارة اللازمة لإضاءة الكون، وابن خفاجة بهذا يرمي إلى هدف بعيد، فهي استعارة الشجرة بالمرأة مع حذف

---

[1]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[2]- المرجع نفسه، ص 66.
[3]- عبد العزيز عتيق، "القاضي الجرجاني والنقد الأدبي"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973، د.ط، ص 387.
[4]- ديوان ابن خفاجة، ص 116.

المشبه وذكر لوازمه وهي (هزت له أغصانها). يقول ابن خفاجة في بيت جميل موظفا استعارة في محلها:

وَهل يَتَثَنَى، ذلك الغصن نَظرَةً بجزعي وهل ألوى معاطفهُ ضَمَّا[1]

إن الشاعر هنا يتمنى أن ينثني هذا الغصن الجميل حتى يمكنه مقابلته، ثم ضمه وتقبيله، فالمشبه به حسناء قد استهوت فؤاد الشاعر، ولغرض من الأغراض لم يذكرها صراحة. إن الطبيعة قد رافقت ابن خفاجة في مجمل شعره فتلون بها مزودا بمختلف الاستعارات الجميلة، يقول الشاعر في هذا الشأن ما يلي:

وَفَاتَ الرِّيَاحَ وَطَالَ الرِّمَاحَ فطُولٌ عَميـمٌ وَطوٌلٌ عَمَـمْ

يَمُـدُّ بغـر الأيادي يَـدَا تَصَاحَبَ فِيهَا النَّدَى وَالقَلَـمْ

فَيَمْحُو مِدَادَ سَوَادَ الرَّجَـا بِمَا فَاضَ مِنْ مَاءِ بيض النِّعم[2]

هنا يصف ممدوحه ببعض الصفات الحميدة التي يمتاز بها من غيره كالكرم والسخاء، وبهذا استعار الشاعر كلمة الندى مع حذف المشبه وتصريح بالمشبه به، وهذا لتأكيد وإظهار سخاء ممدوحه وكثرة عطائه.

ومن الاستعارات الجميلة التي تزيد في المعنى الذي يقصده الشاعر، ويرمي إليه نجده هنا ممثلا في قول ابن خفاجة:

وَلاَ أنْسَ إلاَّ أنْ أضَاحِكَ، سَاعة ثغورَ الأمَانِي فِي وُجُوهِ المَطَالِب[3]

هكذا فقد صرح الشاعر بالمشبه هو (ثغور) و(وجوه)، وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. وفي بيت آخر جميل يقول:

تَنْدَى بقَية أقحوانة أجْرُع قد غَازَلَتْهَا الشَمْسُ غب سَمَاء[4]

فالشاعر هنا شبه الشمس بالمرأة الحسناء، وحذف المشبه به الذي هو المرأة وأشار إليه بأحد لوازمه الذي هو فعل غازلها، ونستنتج من خلال ما سبق أن ابن خفاجة قد غلبت عليه قوة الملاحظة وتصورات الفكر المنتظمة، فجاءت الصور بذلك واضحة جميلة تعبر عن "نتاج عفوية الخيال".[5]

لقد استخدم الدقة في وصفه لمظاهر الطبيعة، وأصبغ عليها صفة الأشياء الحية، وخلاصة القول أن ابن خفاجة امتاز ببلاغته القوية، ودقة استعاراته ووضعها في موضعها الأصلي وبهذا صار إماما في هذا الشعر.

---

[1]- ديوان ابن خفاجة، ص 226.
[2]- المرجع نفسه، ص 242.
[3]- المرجع نفسه، ص 42.
[4]- المرجع نفسه، ص 09.
[5]- باقي محمد، "دراسة في شعر الطبيعة عند ابن خفاجة"، ص 75.

ب- محسنات الصورة في شعر ابن خفاجة:

❖ الجناس:

إن الجناس هو شكل من أشكال الكلام، وأسلوب التعبير، وقد اهتم به البلاغيون وأكدوا على توظيفه في الشعر العربي، لأنه يزيد في جمالية البينة التركيبية الشعرية، وقد عرفه البلاغيون بأنه اتفاق كلمتين في الهيئة واختلافهما في المعنى، وقد قسمه البلاغيون إلى تام وناقص.

ومن بين استعمالات شاعرنا ابن خفاجة للجناس قوله:

وَلَقَدْ جَالاَ الحُسن له سنة   يُلْقَى بِهَا المَعْذُول مَعْذُورًا[1]

يظهر الجناس في هذا البيت في كلمتي (المعذول) و(معذور)، وهما كلمتان اختلفتا في معنى وتطابق في عدد الحروف ونوعها لكنهما مختلفتان من حيث تركيبتهما، فهذا جناس ناقص، وقد يسمى هذا الجناس محرفا كقول ابن خفاجة:

فَيَا لَيْتَ أنّي مَا خُلِقتُ لِمَطْعَم   ولَمْ أدْرِ مَا اليُسْرَى هُنَاكَ وَمَا العُسْرَى[2]

يظهر الجناس هنا في كلمتي (اليسرى) و(العسرى) وهو جناس زاد في جمال شكل بنية القصيدة العربية عند ابن خفاجة. ومن الجناس التام الذي تتفق فيه الحروف مع عددها وشكلها وترتيبها مع اختلافها في المعنى كقول ابن خفاجة:

لاَ أجْتَلِي مَلَحا، حَتَى أعِي مُلِحًا   عَدْلاً مِنَ الحُكْمِ بين السّمْعِ، وَالبَصَرِ[3]

وخلاصة القول أن ابن خفاجة كان يستعمل الجناس لتزيين شعره وتجميله، فتظهر بهذه الروعة الفنية الأخاذة، والجمال الشعري يتوقف على حسن التنسيق ودقة التوظيف، وقوة التأثير ومطابقة الحال.

❖ الطباق:

يعرفه عبد العزيز عتيق، فيقول: "هو الجمع بين الضدين أو شيء وضده في كلام أو بيت شعر"[4]، وفي تعريف الآمدي للطباق يقول: "وهذه حقيقة الطباق إنما مقابلة الشيء بمثل الذي هو قدره، فسموا المتضادين إذا تقابلا – متطابقين".[5]

1- ديوان ابن خفاجة، ص 111.
2- المرجع نفسه، ص 123.
3- المرجع نفسه، ص ********
4- عبد العزيز عتيق، "علم البديع"، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط 1974، ص 64.
5- الآمدي، "الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري"، دار المعارف، القاهرة، د.ط 1965، ج1، ص 191.

ويستعمل ابن خفاجة الطباق مثلا في قوله:

أَلْوَى يقلبي وهو في طيه فصَارَ مَحْمُولاً به حاملا
أَمَا تَرَى أُعْجُوبة أنْ تَرَى فِي الحُب، مقتُولاً فِدَى قَاتِلاً
مُعْتَدِلاً، مُعْتَدِياً في الهَوَى أحْبِبْ به مُعْتَدِلاً، مَائِـلا[1]

إن هذه القطعة الشعرية الرائعة يبرز الشاعر من خلالها همومه وهواجسه، ويريد إظهار حبه المكتوم، وإحساساته الباطنية وهواجسه الدفينة، فيفرغ بهذا شحنته الانفعالية، كما تظهر في هذه الأبيات أنواع الطباق المختلفة التي تزين وتزخرف شكل قصيدته فنجد (محمولا)، (حاملا)، (مقتولا)، (قاتلا)، (معتدلا)، (مائلا)، ويتجلى الطباق كذلك في قوله أيضا:

بعيشِكَ هَلْ تَدْرِي أهُوجُ الجَنَائِـب تَخب برحلـي أم تظهر النَجَائِـب
فَمَا لُحْتُ فِي أُولَى المَشَارِقِ كَوْكَباً فأشرقت حتى جِئْتُ أخرى المغَارِب[2]

ففي هذين البيتين يمكننا ملاحظة الطباق الذي يتجلى في (الجنائب) (النجائب)، (المشارق)، (المغارب)، ومن حسن الطباق أيضا:

فسَلَى بمَا أبْكَى، وَسَرَى بمَا شَجَا وكَانَ على عَهْد السَرَى خير صاحب
وقـلـت وقـد نَـكَبْـتُ لطيـة سلام فـإنـا مـن مقيـم وذاهـب[3]

فالمطابقة هنا في قوله (سلى)، (أبكى)، (مقيم)، (ذاهب)، ومن حسن الطباق أيضا، قول ابن خفاجة:

أأدْعُو، فلاَ تَلْـوي وَأنْـت قريب وَ أشكُو، فلاَ تَشْكِي، وَأنت طبيب
وما كنت أخْشَى أن أراني ضاحيًا وَأيْكُـكَ مطولُ الفـروع رطيـب[4]

ويتجلى الطباق هنا في (أشكو)، و(لا أشكي)، ومن الطباق:

دَعَا بهما صرف الليالي إلى البَلَى فكل الذي فوق التراب تراب
فهَا أنَا أبْـكِـي كل معهد راحة تَضَاحَكَ أحْبَابٌ بِهِ وَصِحَابُ[5]

ويتجلى الطباق هنا في (أبكي)، (تضاحك)، وخلاصة القول أن ابن خفاجة اهتم بالطباق كثيرا، لأنه وجد فيه ما يدعم شعره، الذي يتكامل فيه المضمون مع الشكل واتخذه صفة كما كان يفعل القدماء.

1- الديوان، ص 205.
2- المرجع نفسه، ص 42.
3- ديوان ابن خفاجة، ص 42.
4- المرجع نفسه، ص 40.
5- المرجع نفسه، ص 53.

❖ لزوم ما لا يلزم:

إنه من المحسنات اللفظية يلتزم بها الشاعر، لإظهار براعته اللغوية وتحكمه في ناصية اللغة، كما أنها تزيد في جمال النغم، وترنيمة الإيقاع، مما يضفي على البنية الشعرية رونقا وجمالا، وإن كان البلاغيون قد اعتبروا الشاعر غير مقيد ولا ملتزم به. ولقد عرفه ابن أثير فقال: "أن تساوي الحروف التي قبل روي الأبيات الشعرية"[1]، ونجد الشاهد مجسدا في قول ابن خفاجة وملتزما (بريب):

وَسُمْهُم، إن يَغُضُوا أو يَعضُوا بعقب الحرب، أنملة الحَريب

فإنك، والرباط إلى اعتبـــاط كفيـــل السعد بالفتـــح القريب[2]

وكقوله أيضا:

يَسيِـــرُ فيها سَائِـــرٌ هاجَهَا من الصّبا، مُزْبِدُهُ يقلقُ

فَخُلْتُنِي، في وَسَطِها فارساً فرب منه فرس أبلقُ[3]

فاللزوم يظهر هنا في اللام والقاف، مما أضفى على القافية جمالا في الشكل، وأكسب الصورة رونقا، ومن مظاهر لزوم مالا يلزم قول ابن خفاجة:

حَسْبُ الفتَى حلية أن تستقل به ملكٌ عزيز، فلا يقعد به العَطَلُ

فَمَا احْتَمَى جانب لضم يَحْمِهِ مَلك وَلاَ مَضىَ صَارِمٌ لَمْ يُمْضِهِ بَطَلُ[4]

فالشاعر هنا التزم بحرفي الطاء واللام، فتشكلت موسيقى متجانسة، ونغما جميلا، وقد أضاف هذا جمالا في الصورة الشعرية وتوازنا في القوافي.

[1]- ابن الأثير، "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1960، القسم الأول، ص 365.
[2]- ديوان ابن خفاجة، ص 47.
[3]- المرجع نفسه، ص 179.
[4]- المرجع نفسه، ص 222.

خصائص شعر ابن خفاجة في وصف الطبيعة:[1]

وأخيرا فقد آثرت أن أختم هذا المبحث من الفصل الثاني ببعض المميزات والخصائص التي انفرد بها شاعرنا ابن خفاجة في وصفه للطبيعة ولخصتها في بعض النقاط التالية:

– اتصاله بالطبيعة وإشراك حواسه به. فقد خاطب الشاعر الطبيعة وامتزج بها في بعض قصائده، واتصل بها اتصال الصديق بصديقه، ولجأ إليها واستمع إلى عظاتها في رحابها. وقصيدته في "وصف الجبل"، خير شعره الذي يمثل هذه الخاصية.

ونستطيع أن نقول أن ابن خفاجة قد استطاع في هذه القصيدة أن يناجي الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم، فأشرك النفس الإنسانية بسر الطبيعة وأدرك ما يسمى عنه الفرنجة ب "حس الطبيعة".

– يمثل ابن خفاجة نهضة شعر الطبيعة في الأندلس، فقد استطاع أن يصور طبيعتها الجميلة والحياة اللاهية في أحضانها، وكان في وصفه مصورا بصريا بارعا يعتمد على دقة ملاحظته إلى جانب قوة خياله. وقد يكون قد أغرق في الصنعة والمحسنات البديعية، ومع ذلك استطاع ألا نشعر بثقلها إلا في بعض أوصافه، على أن الصنعة عنده أداة للتجميل، وقد امتزجت بقوة خياله وأناقة ألفاظه، وترف صوره، فجاءت مقبولة كقوله في وصف نهر:

لله نَهْرٌ، سَالَ فِي بَطْحَاءِ أَشْهَى وُرُوداً مِنْ لَمَى الحسناءِ

مُتَعَطّفٌ مِثْلَ السّوَارِ كَأَنَّهُ والزّهْــرُ يَكْنُفُهُ، مَجَــرٌّ سَمَدِ[2]

– الطبيعة عند ابن خفاجة، ضاحكة طروب، وهي مسرح للهو ومقصف للشراب، ولذا فقد هتف ابن خفاجة بالخمر في جو الطبيعة، كما في قوله:

بِحَـــدِيقَـــةٍ ظَـــلَّ اللّمَـــى ظِلاً بِهَـــا وتَطَلّعَتْ شُنُبًا بِهَا الأَنْوَارُ

رَقَصَ القَضِيبُ بِهَا، وَقَدْ شَرِبَ الثَّرَى وَشَدَ الحَمَامُ، وَصفَقَ التّيَارُ[3]

– كانت المرأة صورة من محاسن الطبيعة، والطبيعة تجد في المرأة ظلها وجمالها، ولذا كانت الحبيبة عند ابن خفاجة روضا وجنة وشمسا، وهكذا كانت العلاقة شديدة بين جمال المرأة وبين الطبيعة، فلا تذكر المرأة إلا وتذكر الطبيعة، التي صورها وشخصها على نحو إنساني تملؤه الحركة.

والروض وجه أزهر، والظل فرع أسود، والماء ثغر أشنب[4]

1- الموقع الإلكتروني:

www.ckfu.org/1019590 poste2. Arabie-saoudite: 23-05-2012.

2- ديوان ابن خفاجة، ص 11.

3- المرجع نفسه، ص 114.

4- ديوان ابن خفاجة، ص 36.

– وقد وصف ابن خفاجة أيضا الطبيعة الحية كالفرس والحمام والذئب، وله في وصف الفرس أبيات تترادف فيها البراعة والجدة في التصوير.

– جعل ابن خفاجة وصف الطبيعة حركة أدبية شاملة، لا غرضا مستقلا وحسب، وامتزج بها امتزاجا كليا، وظهر هذا في بعض قصائده ولاسيما قصيدة "في وصف الجبل".

– تعلق الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ببيئته الطبيعية وهيامه بها هياما مبالغا بلغ حد الحلولية، إذ أن الطبيعة شكلت حضورا في معظم إبداعاته الفنية حتى تشظىّ معجمها في مختلف الأغراض من غزل ومدح ورثاء ووصف، وبلغ هذا التمازج بالأوصاف الحسية مرتبة التشخيص والأنسنة.

– اهتمام بالأوصاف الحسية والمظاهر الخارجية، على العناية بالجزئيات كالزهرة والنسمة.

– تفنن في الموضوعات وتنوع البيئة المترفة، القصور، البرك، الدور...

– قلة الخوص في الفكرة، واعتناء بلطف الإخراج، على غزارة في الصور، والألوان.

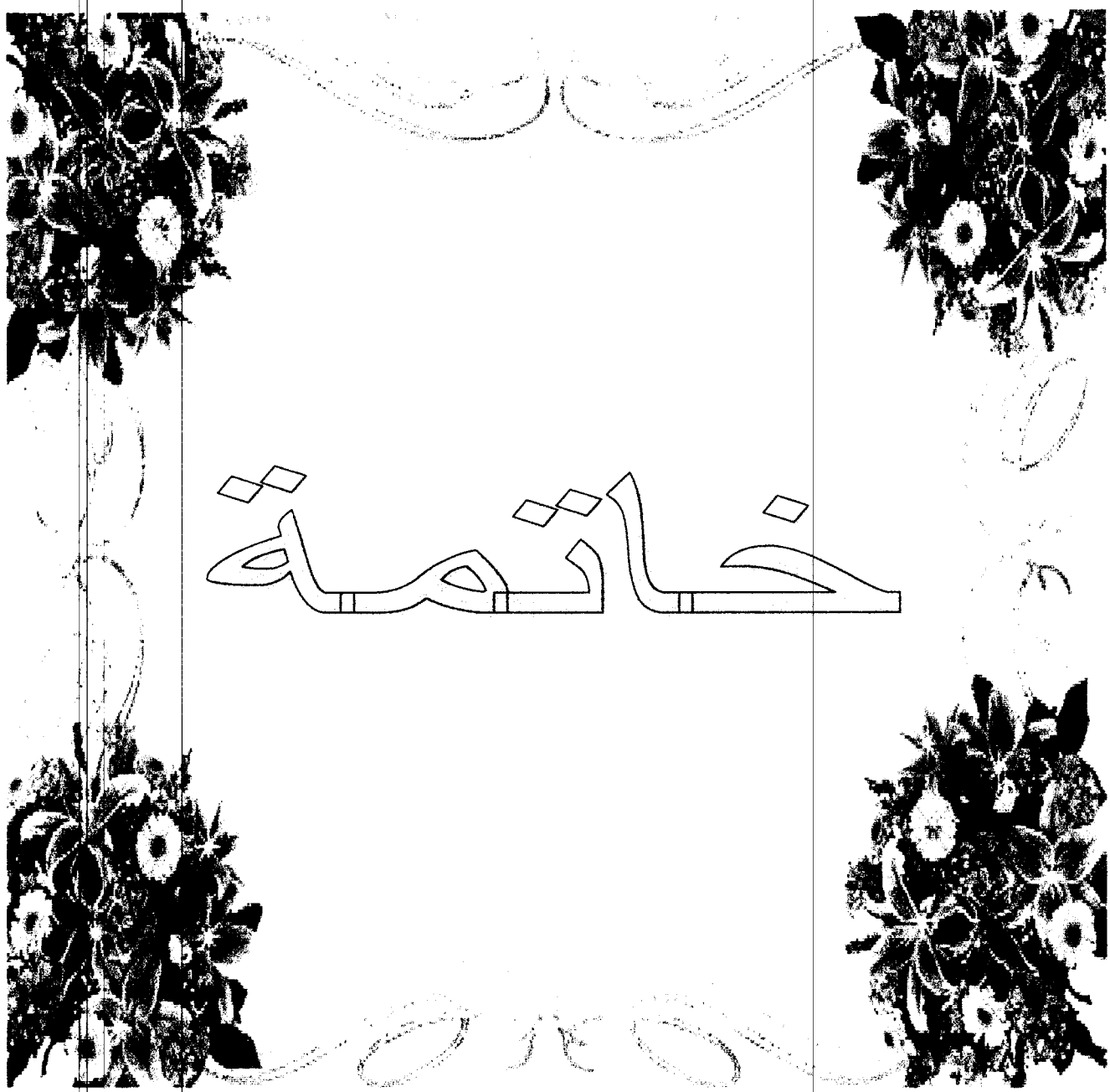

خاتمة

خاتمة:

وبعد... فقد وصلنا إلى الصفحات الأخيرة في هذا البحث، ولكننا لم نصل إلى الكلمة الأخيرة من موضوعه، لأن موضوع شعر الطبيعة في الأندلس مازال يحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب. ذلك أن الأندلسيين برعوا براعة فائقة في هذا الموضوع، ونوعوا فيه، وتوسعوا في أبوابه توسعا اتسم بالابتكار والتجديد، ودقة التصوير حتى لحقوا، بل تفوقوا على فحول شعر الطبيعة ورواده في المشرق، أمثال أبي تمام، ابن الرومي ابن المعتز وغيرهم، وإذا كنا لا نعمم هذا الحكم على شعر الطبيعة في القرن الرابع، فإنه لا ينسحب بلا شك على شعراء ما بعد هذه الفترة على الأقل، وخاصة في عصر الطوائف، فشعر الطبيعة في هذه الفترة قد اجتمعت له أسباب الحداثة والجدة، وتهيأت لأصحابه أدوات التفوق والنجاح بشكل لافت للنظر.

ودراسة شعر الطبيعة في القرن الرابع الهجري عامة، وعند شاعرنا ابن خفاجة خاصة، حسب النهج الذي اتبعناه، وبقدر ما توفر لدينا من مادة شعرية لشعراء الأندلس عامة، وابن خفاجة خاصة، جعلتنا نسجل بعض الاستنتاجات السريعة حول هذا الموضوع: وهي:

- إن استقامة شعر الطبيعة في الأندلس بوصفه غرضا له تقاليده، ومميزاته الخاصة يبدأ مع بداية القرن الرابع هجري، وليس ابتداء من القرن الخامس كما تذكر بعض الدراسات، وذلك بحكم تغير الظروف التي طرأت على القرن الرابع هجري سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا، وانعكاس هذه الظروف على الشعر والشعراء بوجه خاص، فكان الشعراء يعدون بالمئات، وأصبح قول الشعر يتردد على كل شفة، مع الإقرار دائما بأن هذه المميزات لم تكتمل بشكل نهائي إلا بعد القرن الرابع على أيدي رواد شعر الطبيعة أمثال ابن خفاجة، ابن عبدون، ابن سهل الإسرائيلي، ابن زمرك، ابن الخطيب... وغيرهم.

- يمكن اعتبار القرن الرابع الهجري قمة عناية الأندلسيين بوصف الطبيعة الخضراء، وخاصة في بدايته، لأن وصف الطبيعة المصنوعة، لم يزدهر إلا في أواخر هذا القرن والعصور اللاحقة.

- لم تكن البيئة الأندلسية بفتنتها وجمالها، العامل الوحيد في ظهور شعر الطبيعة، وتطور بل كان حب الأندلسيين الشديد لبلادهم، وتعلقهم بكل ما يمت إليها بصلة عاملا مهما صرفهم إلى تصوير كل ما اشتملت عليه من مظاهر.

- شعر الطبيعة في الأندلس، تصوير حي لطبيعة هذا البلد الخضراء، والحية المصنوعة، وهو صورة ناطقة أيضا لما وصلت إليه الحضارة في هذا القرن من توسع في العمران وتطور للحضارة.

– عدم استقلالية شعر الطبيعة بوصفه غرضا قائما بذاته، خاصة في النصف الأول من القرن الرابع، مما يجعلنا نصادفه ممتزجا في أكثر الأغراض الشعرية الأخرى، وخاصة مع المدح، والغزل، ووصف الخمر.

– اختصاص وانفراد كل قطعة واستقلالها بوصف نوع معين، في أواخر القرن الرابع، فهناك قطع في وصف الورد، وأخرى في وصف النرجس، وثالثة في وصف الروض، ووصف الشمعة، ووصف الحمام، إلى غير ذلك من المظاهر الطبيعية والحضارية.

– امتزاج غرضي الطبيعة والغزل وارتباط كل منهما بالآخر فالشاعر لا يتغزل إلا من خلال الطبيعة الممتدة أمام بصره، ولا يصف الطبيعة إلا من خلال أنموذج المرأة المتجسد في خياله، فالطبيعة عند الشاعر الأندلسي امرأة جميلة رقيقة، والمرأة حديقة غناء، بكل ما حوت من أزهار وثمار، ولاشك أن هذا التمازج قد أكسب شعرهم بهجة وجمالا وإشراقا، ودل من ناحية أخرى على أنه كان للمرأة قدر كبير من التحرر والنفوذ، والثقافة في هذا المجتمع المتفتح.

– تشخيص الطبيعة وتجسيدها وبث الحياة فيها، وإبرازها في صور وشخوص، وكائنات حية مما جعل شعرهم في هذا المقال ينبض حيوية وحركة، وهذا ما لمسناه عند دراستنا لقصيدة الجبل، للشاعر ابن خفاجة، الذي جعل من الجبل صديقا حميما يبث ويشكي إليه أحزانه وأفراحه.

– تميز شعر الطبيعة في الأندلس بسهولة اللغة ووضوحها وبساطة تراكيبها بشكل عام، فجاءت الألفاظ رقيقة ودقيقة، ومنسجمة التأليف، خفيفة الوقع على الأذن والنفس وسهولة الألفاظ هذه أدت إلى وضوح المعنى وتيسير فهمه.

– لقد وقف الشاعر الأندلسي بصورة عامة وشاعرنا ابن خفاجة بصورة خاصة، وتوفيقا رائعا وكبيرا في تشخيصهم لمظاهر الطبيعة، وتحولها على يديه إلى أحياء ينفعلون ويتحركون على مسرح الفن الشعر، فهي – أي الطبيعة– في خياله وحضوره العاطفي المتوهج تنبض بالحياة. وتفيض بالمشاعر، بل وتشاركه آلامه وآماله في مشاركة وجدانية رائعة، ندرت في شعر المشارقة.

– لقد انفرد شاعرنا – ابن خفاجة– بالوصف والتصرف فيه ولاسيما وصف الأنهار والأزهار والبساتين والرياض والرياحين فكان أوحد الناس فيها حتى لقبه أهل الأندلس بالجنان أي البساتين، ولقبه الشقندي بصنوبري الأندلس.

– كان ابن خفاجة رقيق الشعر أنيق الألفاظ، غير أن ولوعه بالصنعة وتعمده الاستعارات والكنايات والتورية والجناس وغيرها من المحسنات المعنوية واللفظية جعل بعض شعره متكلفا نوعا ما، وأوقع بعضه في الغموض.

– ابن خفاجة من أكبر شعراء الطبيعة، ولعل ميزته في الكثرة لا في الجدة.

- وفي الأخير، فإن كل خطوة تقدمنا بها في مراحل هذا البحث الذي راعى مختلف جوانب هذا الموضوع مراعاة لا نبرؤها من كل عيب، لأن نتاج المرء يستصحبه النقص، ولذا فإن كل قد أصبنا فمن الله وحده، وإن أخطأنا فمن أنفسنا، ونسأل التوجيه والإرشاد.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجــع:

ابن خفاجة: أبو إسحاق إبراهيم أبو الفتح بن خفاجة-"ديوانه"،دار البيروت للطباعة والنّشر،بيروت،دط،1980م.

ابن عبد ربّــــه-"العقدالفريــد"،مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر،القاهرة ،ط2،1940،1953م.

ابن عبد ربّــه-"ديوان ابن عبد ربّــه"،تحقيق محمد رضوان الدّاية،مؤسّسة الرّسالة ،بيروت لبنان ،دط،1989م.

ابن عذارى المرّاكــشي-"البيان المغرب في أخبار االأندلس والمغرب"،مطبعة لندن ،دط،1951م.

ابن قتيبـــة:أبو محمّد عبد الله بن مســلم-"الشّعر والشّــعراء"،دار إحياء العلوم،بيــروت،ط3،1987م.

أبو الحسن بن رشيــق-"العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده"،ط5،بيروت،1959م.

أبو الحسن علي بن بسّام الشّنتريني-الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة"،دار الثّقافة ،بيروت،دط،1965م.

أبي العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمّد بن خلكان-،"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان"،دار صادر ،بيروت ،دط،ج01 ،دت.

أبي الوليد اسماعيل بن عامر الحميري-"البديع في وصف الرّبيـــع"،معهد العلوم العليا المغربيّة،الرّباط،المغرب،1940م.

أبي بكر محّمد بن عبد العزيز بن القوطيّة-"تاريخ افتتاح الأندلــس"،بـــيروت ،1958م.

إحسان عبــّاس تاريخ-"تاريخ الأدب الأندلــسي-عصر سيادة قرطبة"،دار الثّقافة ،بيروت،دط،1985م.

أحمد بن يحي الضّــبي-"بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلــس"،دار الكاتب العربي،دط،1967م.

أحمد ضيــف-"بلاغة العرب في الأندلــس"،مطبعة مصر،القاهرة ،ط1،1924م.

أحمد هيــكل-"الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة "،دار المعارف ،القاهرة ،مصر1970 م.

أحمدأميــن-"ظهر الإســلام"،لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر،القاهرة، ط3 ،1952،1953م.

*إ-غرسيّة غومس-ترجمة حسن مؤنس-"الشّعر الأندلسي ،بحث في تطوّره وخصائصه"،مكتبة النّهضة المصريّة،القاهرة،ط2،1956م.

الأمير شكيب أرســلان-"الحلل السّندسيّة في الأخبار والآثار الأندلسيّــة"،الطبعة الرّحمانيّة،القاهرة،ط1،1936م.

الجرجاني :أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجرجاني-"أسرار البلاغة "،مطبعة الإستقامة ،القاهرة،دط،دت.

السّيد عبد العزيز سالم-"قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس"،دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر ،بيروت ،لبنان ،دط،ج01، 1981، 1982م.

العابدين عبد المجيد-"دراسة تحليليّة نقديّة لنماذج من الشّعر الأندلسي"،دار الكتاب العربي،بيروت،دط،دت.

الفتح ابن خاقان القيسي-"قلائدالعقيان"،مطبعة التّقدّم العلميّة،القاهرة ،مصر،الطّبعة الأولى،سنة 1320ه.

المقري التّلمساني-"نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب"،دار صادر بيروت ،بيروت ،لبنان،دط،ج01 ،ج03، 1968م.

المنجد صلاح الدّين-"جمال المرأة عند العرب"،بيروت ،دط، 1957م.

الهاشمي أحمد-"جواهر البلاغة في المعنى والبيان والبديع"،دار إحياء التّراث العربي،بيروت،دط،دت.

آنجل جنثالث بالنثيا-"تاريخ الفكر الأندلسي"،مكتبة النّهضة المصريّة،القاهرة،"ط1، 1955م.

باقي محمد-"سيكولوجيّة الحسّ الرّومنسي-دراسة في شعر الطبيعة عند ابن خفاجة"- رسالة ماجستير- 1997-1998م.

بطرس البستاني-"أدباء العرب في الأندلس وعصرالإنبعاث"،مكتبة صادر،،بيروت ،لبنان ، 1937م.

جرجي زيدان-"تاريخ آداب اللّغة العربيّة"،مطبعة الهلال،القاهرة،دط، 1911م.

جودت الرّكابي-"في الأدب الأندلسي"،دار المعارف، القاهرة ،دط، 1960م.

حسين مؤنس-"فجر الأندلس"،الشّركة العربيّة للطّباعة والنّشر،القاهرة،ط1 ، 1983م.

حمدان حجاجي-"حياة وآثار ابن خفاجة الأندلسي"،المؤسسة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع،الجزائر ،ط2 ، 1982م.

سلمى الحفّار الكزبري-"في ظلال الإسلام"،مطبعة ألف باء ،دمشق،دط، 1981م.

سيّد نوفل-"شعرالطبيعة في الأدب العربي،"دار المعارف"،القاهرة،ط2، 1987م.

شارل بلاعمان-"ابن شهيد الأندلسي حياته وآثاره"،منشورات الجامعةالأردنيّة،د-ط ،1965م.

شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب النويري-"نهاية الأرب في وصف فنون الأدب"،نسخة مصوّرة عن طبعة -المؤسّسة المصريّة العامّة للتّأليف والطّباعة والنّشر-دار الكتب-القاهرة1954 م.

شوقي ضـــيف -"الفن ومذاهبه في الشّعر العربي"،دار المعارف، القاهرة ،دط، 1965م.

عبد الحميد عبّاســـي -"وصف الطّبيعة في الشّعر الأندلســـي"،دار السّلام ،دمشق،سوريا،دط، 1987م.

عبد الرّحمن بن خـــلدون -"مقدّمة ابن خـــلدون"،ط2،بيروت، 1961م.

عـــبد العزيز عتيق -"الأدب العربي في الأندلس"،دار النّهضة العربية،بيروت،دط، 1976م.

عبد العزيز محّـــمد عيسى -" الأدب العربي في الأندلس"،مطبعة الإستقامة ،القاهرة ،مصر، 1936م.

عـــمر فرّوخ -"تاريخ الأدب العربي(الأدب في المغرب والأندلس)،دار العلم للملايين،بيروت،ط1، 1981م.

لسان الدّين بن الخطـــيب -"الإحاطة في أخبار غرناطـــة"،مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر،ط2، 1973م، 1977 م.

*محمّد بن عبد الله بن الأبار * -"الحلّة السّـــيراء"،الشّركة العربيّة للطباعة والنّشر،ط1، 1963م.

محّمد بن فتّوح بن عبد الله الحميدي -"جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس"،مكتب نشر الثّقافة الإسلاميّة ،القاهرة،ط1 ، 1952م.

*محمّد بن يوسف بن اـــفرضي * -"تاريخ علماء الأندلـــس"،الدّار المصريّة للتّأليف،دط، 1968م.

محمّد رضوان الدّايـــة -"تاريخ النّقد الأدبي في الأندـــس"،مؤسّسة الرّسالة ،بيروت،ط2، 1981م.

مندور محمـــّد -"النّقد والنّـــقاد المعـــــــــــــــاصرون"،مطبعة نهضة مصر ،القاهـــرة ،(دت).

هلال غنيـــمي -"النّقد الأدبي الحديـــث"،دار الثّقافة ،دار العودة ،بـــيروت،دط،دت.

هيجـــل -"فكرة الجمـــــال"،ترجمة جورج طرابشى ،دار الطّليعة،بيروت،ج2 ، 1981م.

الفهرس

❖ إهداءات وتشكرات.

❖ مقدّمـــــــــــة ....أ

❖ مدخـــــــــــل..ص01

❖ الفصـــــــــــل الأوّل :وصف الطّبيعة في الشّعر الأندلسي:

المبحـــــث الأوّل :البعد التّاريخي للقرن الرّابع للقرن الرّابع الهجـــــــــــــــري

❖ أ-سياسيــــــــا..ص04

❖ ب-اقتصاديّـــــا..ص10

❖ ج-اجتماعيّـــــا..ص12

❖ د-فكريّـــــــا..ص15

❖ المبحث الثّانــــي:الطّبيعة في الشّعر الأندلســـــــــــــــــــــــي:

❖ أ-الطّبيعة الخضــــراء..ص20

❖ ب-الظّواهر الكونيّـــة..ص25

❖ ج-الطّبيعة الحيّة(الحمـام،الأنعـام.....)..ص27

❖ د-الطّبيعة المصنوعة(الدّور،القصور،البرك......)..ص30

❖ الفصل الثّانـــــي :وصف الطّبيعة في شعر ابن خفاجــــــــــــــــــــــــــــة:

❖ تمـــــهيد:نشأة ابن خفاجة وتكوينـــــــه..ص 34

❖ المبحث الأوّل:مظاهر الطّبيعة في شعر ابن خفاجـــــــــــــــــــــــة :

❖ أ-الطّبيعة الميّتة (الحدائق،الأشجار،الأنهار........)..ص37

❖ ب-الطّبيعة الحيّة (المرأة،الحيوان،...............)...ص42

❖ ج- قراءة في قصيدة "وصف الجبل" (أشهر قصيدة لابن خفاجة في وصف الطّبيعة)......ص48

❖ المبحث الثّاني :عدّة الشّاعر في محاورة الطّبيعـــــــــــــــــــــــة:

❖ أ-الصّور البيانيّة (التّشبيه ،الإستعـــــارة......)..ص52

❖ ب-المحسّنات ص55

❖ ج-خصائص شعره في وصف الطّبيعة...ص58

❖ **الخاتمة** ص60

❖ **قائمة المصادر والمراجع**..ص63

❖ **الفهرس**..ص66